وداعاً يا دمشق

ألفت ادلبي

ABU ABDO ALBAGL
مدونة ابو عبدو

دار طلاس

رحماكِ يا دمشق!

مكتبة / سعيد سليم البستاني

سهيل إدريس

٦٦٠

رحماكِ يا دمشق!

قصص

منشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
آب (اغسطس) ١٩٦٥

القلق

ABO ABDO ALBAGL

ه اليوم فتّحت عيني حرية حرية حرية

فتح عينيه ، واللحن يملأ رأسه لكأنه كان طوال الليل مؤرّقاً به . لقد حلم احلاماً كثيرة لا يكاد الآن يذكرها ، ولكن يخيل اليه انها كانت تؤلّف في مجموعها نغماً كبيراً ، وان ذلك اللحن كان يفصل بين مقاطعها ، كأنه اللازمة

مدونة ابو عبدو

والتفت الى زوجته،فرآها قد فتحت عينيها هي ايضاً . وابتسم . إن هذا يوشك ان يكون الآن قانوناً لا يخطيء: انهما يستيقظان في لحظة واحدة . كأن هناك أصابع خفية تنسلّ في الصباح الى عينيها ، فتفتحها ، وتختفي.

وفركت عينيها . ثم نظرت اليه تسائله باهتمام

– أتذكر لحن أغنية عبد الوهاب التي سمعناها قبل ان ننام ؟

ثم اضافت ، من غير ان تنتظر جوابه

– لا أدري ، يخيل إلي انني سمعتك تدمدم به وانت نائم

واذن ، فقد خرجت الى شفتيه ايضاً ، تلك الكلمات الملحّنة التي كانت تملأ رأسه طوال الليل ؟

وقبّل زوجته قبلة الصباح ، ثم نفض عنه الغطاء ونهض الى النافذة يستنشق الهواء النقي

وحين نظر الى الأفق ذلك الصباح ، عجب ان تكون السماء على مثل ذلك الصفاء وتلك الشفافية

وتسلل اللحن مرة اخرى ، أغنيةً عذبة شعر أنها تملأ نفسه جذلاً واقبالاً

ولكن سرعان ما شُدّ بصره الى الطريق ، تحته وسرعان ما ذكر أنه هابط اليه عما قليل ، منطلق الى عمله انطلاق هؤلاء الناس، منفق يومه في ما اعتاد ان ينفقه فيه.

وظل مشدود النظر الى الطريق لحظات وشعر بأن اللحن يختلط فجأة في رأسه ، فتضطرب حركاته وتفقد أنغامه ايقاعها

والتاث كلمات الأغنية، ثم أخذت تنهار وتتساقط واحدة

واحدة ، كأوراق الخريف ، حتى لم تبق منها الا كلمة صغيرة ، صغيرة ، صغيرة كأنها ورقة محضورة ما تزال معلقة بغصن في شجرة كبيرة

كلمة صغيرة مزّقت صدره ، وأدمت حلقه ، ولجاجت لسانه حرية ، حرية ، حرية أين تراها تكون هذه الحرية ؟ اين هي في يومه في بيته ، في عمله معنى حياته ؟

وأتته زوجته بفنجان القهوة ، فجلس يحتسيه انه يود لو يبقى فترة اخرى في سريره يحلم ويتأمل ويفكر ، يحدّث زوجته اي حديث. فهو يأنس بأن ينفض اليها ذات نفسه ، من غير ان ينتظر منها شيئاً انه يشعر بأن بعض الغيوم تنقشع من سمائه اذ تحدثها عن المستقبل ، هذا الذي يحبّه ويخشاه ، يحبه لأنه يخشاه هذا المستقبل الذي ما ينفك يلاحقه ، وهو لا يدري متى يحين لأنه لا يعرف حلماً فيه قد تحقق

وقالت زوجته كلمات لم يعها ويودّ كذلك ان ينهض ، فيجلس إلى كتبه ساعات ، هي في ضميره

الكسب الكسب الحقيقي لعقله وروحه وقلبه
لو

– انها السابعة والربع سوف تصل متأخراً الى المدرسة

وانتفض وهو ينظر الى ساعته انها الآن ، زوجته ، ظلّ لضميره انها ضمير ثانٍ له فاذا افلت يوماً من رقابته ، انتصبت هي بديلاً وان هذا ليثير أعصابه احياناً لِمَ تحرص الآن على ان تذكّره بالمدرسة ؟ انه لم ينسها ، ولكنه يتناساها لحظات ، دقائق ، يعيشها في غيبوبة كأنها نشوة الخمر

ومع ذلك ، فلا مفرّ انه لن يبلغ المدرسة إلا إذا هرول في الطريق ، او استقلّ سيارة يدفع كامل اجرتها ، فيغص بدفعه ، وتغصّ معه هي ، زوجته

وتغصّ ميزانيته .

هذه التي يؤلّفها من راتبه الهزيل في المدرسة ، وراتبه المضحك في الجريدة هذه التي يبتسم في داخله يذكرها ، ابتسامة صفراء إن خمسة أضعاف هذا المبلغ لا تفي بحاجاته الضرورية في البيت الضرورية لقد أصبحت « بارعة » تضحك كلما ذُكر هذا النعت امامها ليذكر عبارتها تلك العميقة الساذجة ، الباسمة الحزينة :

الحاجات كلها ضرورية جداً ، بحيث انه لم يبق فيها ما هو ضروري على الاطلاق ! » ولكن ما الحيلة يا بارعة؟ أنت ترين اني أبذل جهدي كله ، اني لا أدخر دقة من نشاط أحسّ به أجل ، هكذا فليغمر الرضى وجهك يا بارعة أجل ، هكذا فلتبتسم شفتاك ، وإن كان في بسمتها ظلّ من كآبة انني بغير هذا ، أؤثر ان أركن الى الاستسلام ، وأعلن العجز ،وأجلس الى جانبك محطّماً، ذليلاً ، كسيحاً

وعلى أنه أقبل على الزواج بعد روية وتدبّر ، فإنه ما يزال يستشعر الندم ، لا أسفاً على هذه الخطوة ، بل رثاءً لهذه المخلوقة التي كان يودّ لو يوفر لها جميع أسباب الرخاء ولكن ألم ينفق ستة أعوام في ادّخار هذا المبلغ اليسير الذي شاء أن يبقيه لشؤون الزواج ؟ وهل كان بوسعه أن يصبر بعد على العزوبة ، وقد كاد يجفّ في عروقه معين الاحساس ، وأوشكت لوعة الحرمان أن تقتل في قلبه الحنين البشري ؟ لقد كان يخيل اليه أحياناً انه يكره هذه المرأة — أية امرأة — التي لا يستطيع أن يبلغها، ولا ان يركن اليها ، ولا ان يعيش إلى جانبها كما ينبغي للرجل لأي رجل

غير انه لم يكن يقدّر ، اذ تزوّج الفتاة التي كان

يصبو اليها، ان مسؤولية البيت العائلي ثقيلة الى هذا الحد ، ثقيلة حتى ليحسّ منها في صدره رعشة خوف وتهيّب لقد استدان من صديق له غنيّ مبلغاً من المال لن يفيه بأقل من عامين ، ولولا ان ذويه واقرباءه وأصدقاءه أهدوا اليه كثيراً من قطع الأثاث ، اذن

ولقد أيقن ، آخر الأمر ، ان زواجه ، ان الزواج هنا ، بما يرافقه من ملابسات وظروف ، مغامرة مغامرة تدخلها زوجته ، المرأة ، من غير ان يكون في يدها سلاح تكسر به حدّة مخاطرها ، لأنها تظلّ منها على الحياد لقد كان قصارى بارعة انها تُبعد عنه اليأس وكان كل ما تفعله من أجل ذلك ان تبتسم وكان هو يجتزىء بالبسمة ، ثم يمضي في طريقه ، ويغرق في عرقه.

وهؤلاء الذين يراهم في الطريق ، ماضين الى عملهم، ساعين الى رزقهم ، هل يملكون ان يفكروا بغير تأمين رزقهم ؟ هل يأكلون رغيفهم ليفكروا بما بعد ذلك ، أم يفكرون بكل شيء ليأكلوا رغيفهم ؟

وهوذا عام كامل ينقضي على زواجه وهو منذ أسابيع يحسّ في ضميره عاطفة تتفتح يود ان يكون له ابن ، أو ابنة انه منذ طفولته يحب الأطفال ، ويسعد بمداعبتهم ، ويجد دفء هناءة في ضمّهم الى صدره

فكم تراه سيمتلىء فرحة اذا رزق طفلاً يملأ البيت الصغير فرحة ؟

لقد حدّث بارعة في ذلك غير مرة فرأى عينيها تشعّان ببريق الحنان ، وحسب ذات مرة ان هذا الاشعاع في عينيها انما هو انعكاس إشعاع في عينيه. ولكنها كانت دقائق حالمة ، وتنقضي كانت بارعة تذكر هذا العبء المادي الجديد الذي سيزيد في إثقال كاهلها بالنفقات، منذ ان يولد ، بل قبل ان يولد كانت تذكر ذلك ، هي ضميره الآخر ، وتذكّره به

بيد ان هذا لم يمنعها من ان تقول له مرة ، في مثل زفرة ضاق بها صدرها

— لا بد ان يأتي رزقه معه

فأطرق برأسه ولم يجب وذكر اولئك الذين يمضون مسرعين الى عملهم ليحملوا لأولادهم الخبز في المساء ، في آخر المطاف

ولم تضف بارعة شيئاً ، كأن سكوته قد أقنعها بمجانية فكرتها

ولكنه يومذاك ، رأى في عينيها دمعة تلتمع

ويدخل المدرسة مجهداً يكاد يلهث ، فيرى المدير واقفاً عند باب غرفته متصلّب القسمات فيحيّيه تحية سريعة يكون الجواب عليها ايماءة من الرأس ونظرة جامدة . متى أستطيع ان اجابه هذه النظرة المستكبرة المتحدّية ؟ لكأن هذا الأحمق يشتري عزّتي النفسية بهذا الراتب الذي يقاضيني إياه لألقّن تلاميذه ، هؤلاء الذين يتخذهم سلعة للاتجار...

ويدخل عليهم ، فتنقطع أصواتهم انه لم يُخلق لهم . لقد كان بحاجة الى من هم أكبر سناً واوفر وعياً انهم مغلقون ، وانه لا يستشف من نظراتهم اية مشاركة . وكم كان يودّ لو يجد فيهم واحداً تنطق عيناه بأنه يدرك ، اذن لكان أقل عذاباً في احتمال البقاء بينهم طوال النهار ، لا يفارقهم الا ليتناول في البيت غداء سريعاً ، لم يحسّ يوماً بأنه قد اصاب منه الشبع

انه شعور ألم ، هذا الذي يحسّه بأنه لا يستطيع الا ان يشفق عليهم ، وان هذه الشفقة لا تجديهم . انه بحاجة الى أصدقاء يثق بهم ، ويثقون به ، رفاق قريبين اليه يلقى عندهم تواصلاً وجدانياً ييسّر له ولهم ان يرسموا خطة ، ويستشرفوا هدفاً ويحددوا غاية هنا يكمن عذابه الأكبر . انه لن يموت جوعاً وسيظل في وسعه ان يؤمن لزوجته الطعام وسوف يجد من الوسائل ما يوفّر له التغلب على

الضيق والعوز ولكن هذا الضيق في جسده ، والعوز في روحه كيف له ان يتغلب عليها ؟

انه ماض عما قليل إلى الجريدة ليقضي هذه الساعات الست ، في ذلك الجو الذي أصبح الآن أزمة حقيقية يتخبط في امواجها

انه منذ ثلاث سنوات محرر قسم أنباء السياسة العربية وهو الآن يعيش السياسة العربية في لحمه ودمه يعيشها ويموت فيها يعيشها ليموت فيها واذ ذاك يشعر بأن الذي يموت فيه انما هو الانسان العربي

وجلس الى الراديو يستمع الى الأنباء . ثم تناول صحف اليوم يتصفحها ثم راجع برقيات وكالات الأنباء

أجل ، لست اعرف من انا ليست هذه هي الحياة التي اريدها ، التي انشدها انهم هم الذين يعيشونها لي. الأقدار الظروف الأعداء الزعماء المحترفون لكأنها كلها قوى خفية ، ولكأني مشدود اليها شداً ، ولا حيلة لي في دفعها انني لمشلول الارادة انني لعاجز اريد ان اصنع مصيري بيدي ، ولكنهم يوثقونها لي هاتين اليدين

اريد ان ألاقي اخي هناك ، في كل عاصمة ، في كل قرية ،في كل دسكرة . أريد ان أمدّ اليه يدي وأصافحه، لأشعر بأني استطيع ان احقق امكانياتي اذا اعانني ، وبأنه يستطيع ان يحقق امكانياته اذا أعنته ولكنهم هم يقيمون الحواجز او يدعمون الحواجز القائمة ، فيصبح حنيني اليه لمحة ، وقد يحول الى تفجّع وانظر الى يدي، هذه التي تريد ان تمتدّ ، فإذا هي مشلولة

واستشرف حدود وطني ، وطني الكبير ، فأرى في صميمها عدواً زرعه الاستعمار ، ولم يبذل قومي مذخور جهودهم لاجتثاثه من ارضي ، فظل منتصباً على حدود بلادي شبحاً اسود يملأني رعباً ، يملأ ايامي القادمة ،وايام اولادي شبح يتطاول ويتطاول لأنه يتغذى من مخاوفي ومن الرعب الذي يملأني به. شبح يزعق رؤسائي في وجهه زعيقاً ثم يخرسون شبح يصفعني كل يوم ، فأخاف ان أردّ له الصفعة وأجترّ ذلي مجبولاً بدمي

وهناك يناضل اخي ويموت فلا أمدّ له يدي الا بكأس فارغة كأس اخشى ان املأها ، يخشون ان يملأوها،حتى لا يغضب الكبار الذين أحالوني قزماً صغيراً. صغيراً حتى لا أرى نفسي حتى لا أعرف من انا. ولا اعرف ماذا اريد ولا أريد

وطرق عليه العامل الباب ، يطلب مواد للطبع. خذها خذها هذه الأنباء انها كثيره ، انباء الخداع انباء التدليس ، انباء التخدير ، انباء العجز والاستسلام. انشرها في الصفحة الأولى ، انشرها على العريض

●

وتستقبله بارعة محمرّة العينين من النعاس. لقد تأخرت الليلة يا عزيزي كانت هناك اليوم انباء كثيرة. أودّ ان آكل لقمة إنني متعب جداً

وظلت جالسة ورآها مغمضة العينين واذ فتحتهما رآهما مغرورقتين ولم تقل شيئاً ولكنه كان يعرف ماذا تريد ان تقول انك تنهض باكراً ، وتعود في ساعة متأخرة من الليل وانك فوق ذلك تأتي متعباً

وتنهض بارعة فتأتيه ببعض الطعام. ويفاجئها بعد لحظات وهي تنظر اليه بأسى انها ترثي لي أجل ، إن زوجتي ترثي لي حتى زوجتي

— لا ابتسمي يا بارعة ، ابتسمي.

فتبكي بارعة ويعجز هو عن كبت ثورته ، فينفجر. ولا يدري بمّ ينفجر ، ولا الذي يقوله كل ما يذكره انه جعل يصيح ويصرخ. ولم يصمت الا حين تمثل صورتهم،

هم ، يزعقون في وجه المتربّص هناك على الحدود. مثلهم كان يزعق في وجه الحياة

وظل جالساً الى المائدة حتى هدأ ولحق بزوجته التي كانت قد امحّت لدى فقد اعصابه وألفاها قد غطّت وجهها كأنما تريد ان تحجب عنه ذلك الأسى الذي ينطق في عينيها واقترب يضمّها اليه مهدئاً ، معتذراً. سامحيني يا بارعة لقد كان ذلك اقوى مني ولم تكن لي حيلة في دفعه سامحيني يا عزيزتي

ورفعت بارعة عن وجهها الغطاء ، وجعلت تنظر اليه في حيرة ورأى على شفتيها أطياف كلمات فسألها بعينيه. وقالت بعد تردد

ـ أخشى ان يسوءك ما سوف أنبئك به

فأقبل عليها متلهّفاً

ـ خيراً يا بارعة

قالت وقد أغمضت عينيها من جديد

ـ لقد قصدت الطبيب اليوم، فأكد لي اني سأصبح أمّاً.

ولم تترك له لحظة ليتحقق من أثر النبأ في نفسه ، بل انطلقت تتحدث بسرعة لم يعهدها فيها، كأنما أنفقت النهار كلّه لتُعِدّ كلماتها. قالت له انهما لن يحملا اي همّ من أجل طفلها، وانها مصرّة على القول بأن رزقه سوف يأتي

معه ، وانه سيملأ البيت فرحة ، وانها ستجد فيه عزاءً من غيبته طوال النهار ، وانها ستربّيه تربية صالحة ، وانها ستبدأ منذ الغد في تدبير أمر ملبسه وانه

أجل يا بارعة ، وسوف تكتسب حياتنا معناها المفقود ، سنعرف لماذا نناضل ونعيش قلقنا يا بارعة . إن العجز اليوم يشلّ أيدينا . إن جيلنا هو جيل انتقال . انه الجيل الضحية . فلنعرف ان نجعل من قلقنا وسيلة مجدية للجيل الذي سيخلفنا .

أجل يا بارعة ، سنكون لبنة يرفع بها آباؤنا ركناً من البناء الذي سيشيدونه

أجل ، يا بارعة ، سنعيش لنمكّن لطفلنا ، هذا الذي تجنّه احشاؤك المقدسة ، ان يعيش حياة يصنع فيها مصيره بيديه ، ويخلق مستقبله بنفسه

— إن الغد هو يوم أحد ، فليس لديك مدرسة ولا جريدة ، ولن نغادر البيت غداً سنجلس لنفكر به بـ « نانا » ، أليس كذلك يا عزيزي

— بلى ، يا بارعة

وانحنى عليها برفق يقبّلها وهو يشعر بأنه يوشك ان يبكي

الدمع العذب

سألتني ، حين رأتني ارتدي ثيابي

ـ كنت أظنّ انك لن تخرج الى الراديو يكاد يبدأ اذاعة الاحتفال

فأجبتها باقتضاب

ـ سأستمع اليه من النادي

ـ ولماذا النادي ؟ إبقَ الى قربي انني أُحبّ ان نستمع اليه معاً

فنظرت اليها بحنان ، ودنوت منها ألامس خدّها بشفتي وانا اتمتم

ـ أودّ ان أراهم

فلم يبدُ في عينيها الاقتناع ، فأضفت قائلاً

ـ أحب ان أكون بينهم في هذه اللحظات ، ولن

اتأخر كثيراً ... انتظريني

وحين فتحت الباب ، وهممت بإغلاقه خلفي ، سمعتها تناديني قائلة

— لحظة لحظة ألا تريد ان ترى « رورو » ؟

كانت بعد ثوان امام الباب والطفلة بين ذراعيها تنظر اليّ بعينين فيهما تلك الدهشة الأبدية التي تنبعث منها منذ ان وُلدت ثم ابتسمت « رائدة » فأقبلت عليها اقبّلها في وجنتها وانا أتساءل « متى تفهم ما اقول ؟ » ثم قلت لها

— سأعود بعد قليل يا بابا

وانفلتُّ عنها متجهاً الى المصعد وللمرة الأولى سمعتها تنفجر خلفي بالبكاء ، فاذا بي اعود اليها ملهوفاً آخذها بين ذراعي وأغمر وجهي في عنقها الطري البضّ واسمع زوجتي تقول

— لقد بدأت تفهم

وعدت فدخلت البيت ، وجعلت اتحايل عليها حتى تمكنت من إلهائها بلعبة صغيرة اخذت تحدثها باللغة التي تفهمها وسمعت في تلك اللحظة صوت المذيع يعلن ان الموكب قد بدأ بالمسير ، فأسرعت بالخروج وفي نيتي ان أبلغ النادي في دقائق

وسمعت وانا اجتاز الطريق الرئيسي اصوات الموكب تمر سياراته ودراجاته الصاخبة بين الصفوف من الناس الهاتفين المصفقين لقد كانت اجهزة الراديو في حينا مطلقة اصواتها الى اقصى ما تبلغ مدة الاصوات من الارتفاع والهدير لكأن سكان الحي قد اتفقوا على ذلك بيد انهم لم يكونوا على مقربة من اجهزتهم لقد تركوها في الداخل تصيح ، وخرجوا الى عتبات الأبواب، في البيوت والحوانيت ينظرون ، كأنهم ينتظرون بغموض ان يمر الموكب بعد قليل بحيهم، فينضموا اليه ويهتفوا ويصفقوا.

وحين بلغت النادي ، رأيت سبعة او ثمانية منهم متحلقين حول الراديو وحييتهم بانحناءة من رأسي ثم جلست الى جانب احمد ، من غير ان انبس بكلمة وحين أجلت فيهم نظري لم أر بينهم عزت . اما حسان ، فكان حانياً ذراعه فوق الراديو يرتشف كل كلمة يطلقها المذيع وكانت عيناه الزرقاوان تطوفان بالجلوس بين الفينة والفينة وفيها تساؤل ، وتطيلان الوقوف على وجه جميل الذي كان غارقاً في كرسيه بجسمه السمين ، مطرقاً الى الارض بنظره الطفولي واما نزار فكان مختفياً وراء نظارتيه ، وطيف ابتسامة على شفتيه . وهم مختار يقول « يا اخوان اليوم » ولكنه آثر ان يؤجل تعليقه

حين ارتفع صوت المذيع يعلن وصول الموكب الى دار الرئاسة وفتح حسّان علبة « باستيل » كانت في جيبه وقدّم منها للجميع ، فلم يأخذ مختار ، بينما أخذ احمد حبتين اثنتين وفي تلك اللحظة انبعث صوت المذيع هادراً، فراودته نحّة فالتفت جميل الى حسّان يقول له وهو يشير الى الراديو

ـ قدّم له حبّة

فانفجر سامي ضاحكاً ، واكتفى نزار بأن يطلق طيف ابتسامته الرابض على شفتيه اما انا فأعجبتني النكتة ، ولكني كتمت الضحكة في صدري وعاد مختار يقول

ـ يا اخوان الحقيقة

فانبعث من بعيد صوت يدعوه الى السكوت وعرفت فيه صوت عبد الحفيظ الذي كان قد نهض وتوجه الى الراديو حتى اذا حاذاه ، التفت الينا وقال

ـ والله العظيم

فهبّ مختار يشير اليه بيده ويصفر بفمه : « هسس » كأنما لينتقم منه

وكنت قد وضعت رأسي بين كفي حين أُعلن مولد الجمهورية العربية المتحدة

ومن خلال غشاوة رانت على عيني ، رأيت الباب

يُفتح ، ويدخل عزت ، متأبطاً كتبه ... وحين سمع مرة اخرى « الجمهورية العربية المتحدة » انهار على مقعد قريب من البار ، واخذ البكاء يهز جسمه حتى سقطت كتبه من يده ، فاستقر اثنان على ركبتيه وثلاثة على الارض وعند ذلك اقترب عبد الحفيظ ، وانحنى بقبلته المديدة فالتقط الكتب على مهل ، ورفع ذراعه فألقاها على كتف عزت وحين أجلت بصري فيهم ، كانت في عيونهم جميعاً دموع

وشعرت بقطرة تحرق خدي ، وتظل تسيل حتى تبلغ شفتي العليا وتذوقتها بلساني وتمصصتها دمعاً عذباً لقد حلا الدمع المر منذ عشر سنوات مر على لساني كالحنظل ولقد احسست له بمذاق مرير لم يذهب به الا مذاق النبيذ الذي استحضره حمدي وانشأ يصب لي ولنفسه منه الكؤوس وقد شربت مع حمدي تلك الليلة كؤوساً كثيرة ، فثملنا وعربدنا ثم رأيت حمدي يتقيأ على بساط الغرفة ، فشعرت بأني لم اكن انا نفسي الا نقطة رشاش من هذا القيء الكثير منذ عشر سنوات ، في باريس اما هذا الدمع الآن

ورأيت عزت يمسح عينيه ونزع نزار نظارتيه عن عينيه واغمضت انا عيني فانبعثت خلف جفني اطيافهم

جميعاً وقد انتصبوا واقفين وبدأوا يتكلمون

الحقيقة يا اخوان انه يوم

انا لا اصدق

من كان يظنّ

كنا بحاجة الى مؤمن هذا الايمان العظيم بالقضية والى بطل يؤمن بالتضحية والفداء

ان الرعشة لا تزال في اطرافي

يا احمد انك لا تتصور أية خطوة عظيمة هذه التي خطوناها حسبهـا ان تردّ لنا ايماننا بانفسنـا لقد زالت عقدة الذل ، والاحساس بالغربة في ارض الوطن تدفّق النهر مكتسحاً صخور العبودية اضطربت الموجة الجامدة بالحياة ، وستقتلع الأعشاب الطفيلية وستزيل الحجارة التي تعرقل تدفقها ؟

ألم اقل لك يا سامي انهم سيطلقون عليها اسم الجمهورية العربية المتحدة

لا ، قلت الدولة العربية المتحدة هناك فرق

كنت اقول ان قوميتنا ستظل شعارات ما لم تمتزج بالدم من جديد ما لم تُعمّد ولقد عُمّدت في بور سعيد ووهران وهي ما زالت بحاجة الى دم انها مـا فتئت عطشى ، ولا بد ان تروى

يقولون   عاطفة ؟ سخفاء هم ! متى كانت الأعمال العظيمة تتحقق اذا لم ترفدها العاطفة ، الحماس ، الهوس ، الجنون ؟ والايمان ، ليس هو اقتناعاً تحت ... انه عاطفة هوجاء   ان المؤمنين ليسوا فلاسفة . انهم ادباء بل شعراء . انهم هم الذين يخلقون الحقيقة من جديد . يبكرون الواقع ابداً ليصنعوا واقعاً أجمل وأروع   وما يفتأون يعملون حتى يؤمن الناس بهذا الواقع الخيالي ، وآنذاك يبدأ هذا الواقع بالتحقق

والله العظيم يا اخوان ، حلمت يوم امس

أما تزال تحلم يا مختار ؟ لقد آن لك ان تستيقظ ، انظر   اسمع ، انها الحقيقة بين يديك   في ضميرك انها هناك ، في دمشق ، في القاهرة   وعما قريب في عمان وبغداد والخرطوم وبيروت   في كل مكان

ان الشعب الآن يريد . فقد ظلت أمانيه مكبوتة محرومة منذ عشرات العقود   اما الآن ، فانه يترك لأحلامه التي كانت تداعب خياله بغموض ان تتجسد واقعاً حياً نابضاً لا يكاد يصدق ، واقعاً رائعاً يوشك ان يكون مروعاً ، واقعاً معجزة   لانه يا عزت الواقع الامنية   الواقع المستقبل   الواقع المصير

كانوا يقولون لنا يا جميل ، كونوا واقعيين   ولكن

ما عسى ان ينتهي اليه مصيرنا لو كنا واقعيين كما يحبّون؟ أما كنا نظلّ طويلاً في ظل الاستعمار المثلث اما كنا نُحرّم الامل في ان نتّحد يوماً ؟ أما كنا نُحرم الامل في ان نستردّ الارض المغصوبة في فلسطين ونحرم الامل في ان ننصر قوميتنا في الجزائر ، ونحرم الامل في ان نستعيد مكاننا تحت الشمس ؟ اما كنا نصبح عبيد الواقع لو كنا مثلهم واقعيين ؟ وكيف كان لنا ان نزيح الملك الطاغية ، ونؤمم القنال ونقاوم في بور سعيد ؟ كيف كان لشكري ، هذا الذي يعلن الآن مولد الطفل الجميل، ان يُقدم على التضحية

كانت جباهنا يا شباب ممرّغة في وحول المذلة وكانت عقدة الدونية واليأس تتعقّد في نفوسنا يوماً بعد يوم ولكم اصيبت امتنا في القرن الاخير بالتمزق النفسي والخجل غير ان ذلك الذي تطاول عملاقاً هناك بهض ليشعرنا بان قدرنا ما زال عظيماً ، وان هذا الذل الذي يلطّخ جبيننا لا بد ان يمحى لقد خطت القدم الخطوة الاولى ، الخطوة الجبّارة ، وهي لن تتعثّر بعدُ ابداً

ما كان هذا قصدي يا عزت

بل اسمعوا يا اخوان انه يتكلم فليتكلم ما حلا له فليتكلموا جميعاً فليس يهمنا كثيراً بعدُ ان نستمع

اليهم لانهم لن يقولوا الا ما نقوله نحن وما دام العمل قد تمّ ، فليست قيمة الكلام بعدُ كبيرة بوسع الكلمة الآن ان تنام ، هذه الكلمة التي كانت اخطر افيون يخدروننا

وانت ما رأيك يا نزار

دعني اجيب عنه : فهو سيبدأ بالقاء المواعظ والدروس. ليس هذا وقت المواعظ والدروس

اسكتوا قليلاً يا اخوان اسمعوا

ورفعت رأسي على صوت عزت يدعوهم للصمت فرأيتهم جميعهم مطرقين لا ينبسون واخذني العجب كيف صمتوا كلهم دفعة واحدة بعد ان قالوا هذا الكلام الكثير ؟ ثم شككت بسمعي لعلهم كانوا صامتين منذ ساعة ، ولم ينغم احدهم بحرف ، وإنما يخيل اليك أنت

ورأيت عزت ينهض ، فيضع [illegible] ويقول:

— تهانينا ايها الاخوان

ثم يقبل على نزار فيعانقه وما يل[illegible]ـين وجميل ومختار وعبد الحفيظ وانيس ورفيق وصبحي ان يتصافحوا ويتعانقوا وكنت كلما عانقت احدهم شعرت وانا اقبّله برطوبة الدمع على وجنتي وشفتي وكنت اتمصّص ذلك

وفُتح الباب فجأةً بعد لحظات ، ودخل سامي حاملاً العلم العربي الكبير الذي كان معلّقاً في صدر القاعة الكبرى. وما كاد يتوسط الحجرة حتى احطنا بالعلم ، ثم ركعنا جميعاً ، وتجاذبنا اطرافه نقبّلها

وبعد دقائق ، كنا مجمعين على تفاصيل مهرجان الوحدة العربية الذي اعتزمنا اقامته

وحين عدت اعبر الطريق الرئيسي في حيّنا كانت اجهزة الراديو ما تزال مطلقة اصواتها الى اقصى ما تبلغ هذه الأصوات من الارتفاع والهدير ورأيت سكان الحي ما زالوا واقفين على عتبة الأبواب ، في البيوت والحوانيت، كانما قوي ايمانهم بأن الموكب سيمرّ بعد حين ، فينضمون اليه ويهتفون ويصفّقون

وفتحت الباب على مهل ، متوقعاً ان اجد زوجتي قد أوت الى فراشها بعد ان قاربت الساعة العاشرة ولكني وجدتها جالسة الى الراديو الذي لا بد ان يكون صوت هديره قد حجب صوت دخولي . والواقع انها فوجئت بي على مقربة منها واصابها بعضُ الذعر فنهضتْ من من مقعدها واحاطت عنقي بذراعيها وهي تقول

ـ لقد ارعبتني

وظل رأسها على كتفي لحظات ثم أحسست بجسمها تهزه الرعشات

وضممتها الى صدري ومشيت بها خطوات حتى جلسنا على الأريكة وقلت لها انني لم ارها من قبل على مثل هذا الجمال ، ولم أحبّها كما احببتها في تلك اللحظات ولم اكن يوماً سعيداً بها كما كنت ذلك اليوم ولم اشكر لها انها كانت الى جانبي في فترات القلق والتشاؤم والتمزق تحاول ابداً ان تبدد غيوم القلق والتشاؤم والتمزّق ولم اقل لها انها في حياتي رمز الأمل

— لقد بدأ املك يتحقق يا عزيزي

لمثل هذا خاصتة أحبّك انك من رهافة الحس بحيث تشاركيني ابداً اجوائي وهمومي ، من غير ان احدثك عن اجوائي وهمومي

— وهذا الشعب الحبيب الطيّب لقد آن له ان ينفجر بمثل هذه الفرحة التي كانوا يخنقونها دائماً في صدره. انني افهم ان يسكر هذا السكر ويأخذه ذلك الهوس والجنون لقد التقى بقدره من جديد

ثم اضافت زوجتي وأنا أتأمل عينيها

— ولكن امامنا طريقاً طويلة بعد الا تعتقد ذلك ؟

فأجبتها وانا ألامس وجنتها بشفتي

– بلى يا عزيزتي غير اننا بدأنا المسير ونحن نعرف الطريق

وكان العملاق في تلك اللحظة قد بدأ يتكلم هناك في العاصمة الكبرى وانفجرت الاصوات تهتف وتنادي وتحيي ورأيت زوجتي ترهف سمعها باتجاه غرفة النوم ، ثم تنهض وهي تقول

– لقد افاقت رورو انها تبكي

وعادت بها بعد لحظات ، وهي ما تفتأ تبكي ولكنها ما كادت تراني حتى كفّت عن البكاء ثم ابتسمت ، والدمعة ما تزال في عينيها واتجه نظرها الى جهاز الراديو الصاخب ، فظلت لحظة تستمع ثم رفعت يدها الصغيرة واخذت تلوّح بها وهي تصرخ صرخات صغيرة كأنها الهتافات

وشدّتها أمها الى صدرها واخذت تقبّلها في خدّها وجبينها وشعرها ثم التفتت اليّ تسألني

– ألم أقل لك إنها بدأت تفهم ؟

حماك يا دمشق

ألفيته منكبّاً على اوراق امامه يقرأ فيها، حين دخلت عليه المكتب ولم يرفع رأسه الا حين اصبحت قبالته ووضعت يدي على طاولته ، وانا أُحسّ بأنها ترتجف وسرعان ما بادرني

ـ ماذا ؟ لماذا أرى وجهك ممتقعاً ؟

فلم ادرِ كيف أبلغه النبأ وظللتُ لحظة حائرة مضطربة ، فاذا هو ينهض عن كرسيّه ويستدير حول الطاولة ، ثم يأخذ بيدي قائلاً

ـ أتشكين شيئاً ؟ هل استدعي الطبيبة

لقد ظنّ اذن اني موشكة على الوضع وان امتقاعي واضطرابي من علاماته وهززت رأسي نفياً ثم سمعت صوتاً ضعيفاً يخرج من بين شفتي

– إذهب فاستمع الى الراديو

فترك يدي ، وهمّ بأن يمضي ، ولكنه عدل ، وكأنه يخشى ان يسمع شيئاً لا يروق له ، وعاد يسألني بلهفة

– ماذا هناك ؟ ماذا يقول الراديو

فأحسست أني أتداعى للسقوط ولكني تماسكت ، وقلت من غير ان أنظر اليه.

– لقد وقع انقلاب في دمشق

قال والذعر في عينيه

– ماذا تقولين ، في دمشق ؟

فأومأت برأسي،وانا اغمض عيني. وشعرت بيده تمسك ذراعي ثانية وتهزّها

– تقولين في دمشق ؟ أأنت متأكدة من انك سمعت هذا في دمشق

أجبت بصوت ضعيف

– هذا ما ما أعلنه راديو دمشق بالذات

ورأيته ينصرف عني ، معجل الخطى ولكني حين تبعته أحسست انه كان بطيء السير كما لو ان اعباء ثقيلة قد أُلقيت على كتفيه وتصوّرت ركبتيه تصطكان، فشعرت باصطكاك في ركبتي وحين دخلنا البيت ، ألفيتني ارتمى على الاريكة ، بينما انحنى هو يرتفق الطاولة

العريضة التي كان جهاز الراديو موضوعاً عليها

وكان صوت موسيقى عسكرية ينبعث من الجهاز ، ورأيت زياد يلتفت الي ، وفي عينيه تساؤل ورهبة ولم أُطق هذا الصمت ، فبدأت اقول

ـ كنت ابحث عن الموسيقى الصباحية ، فاذا بي اسمع مثل هذه الموسيقى العسكرية ، ثم سمعت عبارة « هنا دمشق محطة الاذاعة السورية

وما كدت ابلغ هذا الحد من كلامي ، حتى انقطعت الموسيقى العسكرية ، وارتفع صوت يقول كأنما هو صدى للعبارة التي نطقت بها تلك اللحظة : « هنا دمشق، محطة الاذاعة السورية »

واستمعنا الى البلاغين الأول والثاني ، وكان زياد رافعاً يده نحوي ، كأنما يشير إلي بألاّ أتكلم ، حتى اذا عادت الموسيقى العسكرية رأيت يده تهبط متثاقلة الى جانبه ثم يستدير على مهل ويتقهقر خطوتين ، ثم ينظر الي . فأجد على وجهه مزيجاً من دهشة وعدم تصديق ويقول وعلى شفتيه بسمة مصفرّة

ـ الله ، الله ، يا دمشق الله ، الله ، يا دمشق!

وأُحس بجسمه يسقط الى قربي ، ثم ينحني رأسه فيسقط بين يديه وظل زياد لحظة لا يتكلم ولا يتحرك

وحين أزاح يديه عن وجهه ، رأيته مصطبغاً بالدم ، كأنما كان يستشعر خجلاً وعاراً ، ونظر الى عيني ملياً ثم قال

ـ لا تبكي يا ليلى ، فان الامر لن ينتهي هكذا

فلم أجبه بكلمة ، ولم اطلب منه ان يكفّ هو ايضا عن البكاء

وما لبث ان نهض ثانية ، وهو يمسح دمعته باصبعه ، وادار مفتاح الراديو الى اذاعة القاهرة فاذا بموسيقى عسكرية تنبعث منها كذلك ثم اذا بصوت المذيع يعلن ان الرئيس سيلقي بياناً هاماً عما قليل

وتمرّ زياد في صمته ولكنه كان يرفع عينيه بين الفينة والفينة ، فأرى فيهما شروداً وغيبة ورزحت تحت صمته ، وانا احس ارهاقاً ومشقة ، ولم اتمالك نفسي فقلت له

ـ أتعتقد ان هذه التي يسمّونها « انتفاضه مباركة » يؤيدها الشعب ؟

فالتفت الي ، ولم يجب ، كأنما لم يسمع سؤالي ، ولكنه ما لبث ان قال

ـ لا يمكنني ان أصدق ان الشعب السوري يؤيدها

وصمت هنيهة ثم اضاف

— يبدو من البلاغين انها حركة تريد الانفصال فكيف تريدينني ان اصدّق ان الشعب السوري ، أبا الوحدة ، يقتل ابنته ؟

ثم انتفض فجأة وتمتم بين اسنانه

— لا افهم شيئاً انني لا اصدق هذا لا اصدق هذا

واولاني ظهره ، ثم خرج الى الشرفة ، ووضع يديه على الحاجز ، يشدّه بكل قوته ، ولكن سرعان ما دخل الغرفة حين ارتفع صوت المذيع يعلن ان الرئيس يتحدث

وجاء صوت رجل قناة السويس ، في لهجة خطاب قناة السويس

وارتمى زياد الى جانبي ، وانفجرنا بالبكاء

ولكن الامل كان يتلألأ في عيوننا مع الدمع ، حين غاب الصوت الحزين المتمزق

ولقد انفجر هذا الأمل في صوت زياد ، هتافاً فرح وجذل ، حين ناداني في الساعة الثانية بعد الظهر ليطلب مني ان اصغي الى البلاغ التاسع ، ثم سمعنا العبارة الحبيبة تتهادى من جديد

— « اذاعة الجمهورية العربية المتحدة من دمشق »

وتحوّل زياد انساناً آخر ، ينفق كل طاقاته في الكلام، هو الذي يؤثر الصمت ، فاذا به يطلب الينا ان ننسى هذه الساعات القليلة التي مرّت علينا ويقول انها كابوس قد انقضى ، وان دمشق ستظل كعبة الوحدة والعروبة ، وان سحابة الصيف قد انجلت وراح يتصل باصدقائه واقربائه في كل مكان ، حتى خيّل الي ان ساعة التلفون ستذوب في يده من فرط الحرارة التي كان يحملها صوته اللاهث في تعبير الفرحة والابتهاج والطلاقة

وحين وضع السمّاعة المتعبة ، سمعنا اصوات هتاف في الحي فخرجنا الى الشرفة فاذا بنا نرى بضعة رجال وشبان قد عقدوا حلقة مستديرة ، كان ابو احمد ، بائع السوس محاطاً بها وهو يصفق صناجتيه مغنياً هاتفاً وتبيّنا على الفور ان اصحاب الحلقة كانوا سليم النجار ، وحلمي بائع الفول وابا علي الحذّاء ، وقد انضم اليهم بعض الشبان يغنّون ويهتفون لحياة الجمهورية العربية المتحدة وحياة رئيسها ، وحياة الشام وتذكّرنا بعد قليل ان ابا احمد بائع السوس كان سوري الاصل ، وان باعة الحي أحاطوا به كأنما يقصدون الى غاية او يوحون برمز

وأرسل زياد تنهدة طويلة ، ونحن نعود الى غرفة

الجلوس ، ثم اتجه الى المائدة التي كان الطعام جاهزاً عليها منذ ساعتين ، فتناول غداءه بشهية لم اعهدها فيه ،وقلت له بعد ذلك

– لا اعتقد ان بوسعك ان تعود الى العمل الآن ، فقد انفعلت في هذه الساعات انفعالاً كبيراً

قال باسماً

– فهمت قصدك .. ان شوقك الى البنتين قد بلغ غايته، فهيا بنا الى المصيف سوف اشعر بمذاق هذه النعمة شعوراً اعمق حين أضمّها الى صدري

ثم توقف متردداً ، واضاف

– ولكنك تنسين ان الطبيبة نصحتك بعدم ركوب السيارة في رحلة طويلة كهذه

وكنت اخشى ان يعدل بسبب ذلك عن مشروع السفر، فألححت عليه قائلة باني احس راحة وهدوءاً كبيرين ، وان بوسعنا ان نسير ببطء ، وان هذه ستكون آخر رحلة الى المصيف

وعاد يتدفق في الطريق بحديث ينبض بناطاف المستقبل المشرق ويناقش الشكاوى التي وردت في البلاغات ويعبّر عن امله بان نفيد جميعاً من ذلك الحدث درساً وعبرة وحين صمت ، ادركت انه قد عاد ينسج خيوطاً

جديدة في هيكل روايته التي يضعها الآن وسألته بعدقليل

ـ أتذكر القصة التي كتبتها إثر الوحدة

قال باختصار ، كأنه ما يزال غارقاً في افكاره

ـ نعم اذكرها

قلت له

ـ كانت دمعتك التي ذرفتها حين سمعت البلاغ التاسع ، شبيهة بتلك

فظل على صمته لحظة ثم تباطأ قليلاً في سيره وشدّ يديه على المقود وهو يقول

ـ ولكن حسبنا دموعاً يا ليلى فينبغي ان نواجه قضايانا على غير هذا الاساس الانفعالي العاطفي يجب ان نتقبل افراحنا بغير الدمع العذب ، ومصائبنا بغير الدمع المرّ الا ترين معي ذلك ؟

وحين أجبته باننا نحن العرب عاطفيون بطبعنا واننا لا نستطيع بيسر ان نغيّر هذا الطبع ، كنت ادرك اني لا اقول كلاماً ايجابياً ، وان التماس هذا النوع من التبرير يدخل هو كذلك في طبيعتنا الانفعالية

وقال لي زياد ، بعد ان نظر الى ساعته ، بلهجة عصبية

ـ ارأيت ؟ اننا الآن بحاجة الى الراديو في السيارة !

وفهمت انه ينحي علي باللائمة التي كنت اثنيه دائماً عن شراء جهاز راديو للسيارة بحجة انا لن نحتاج اليه الا نادراً وخطرت لي فكرة طريفة لم أتردد لحظة في التعبير عنها

– ولكنك تنسى دائماً يا عزيزي ان في السيارة جهازي راديو حين تكون البنتان معنا ! هل هناك اغنيــــة لا تعرفانها ؟

وحين ابتسم ايقنت انه قد سُرّي عنـــه ، وهو يتشوّف معي الى لقاء ابنتينا اللتين كنا قد غبنا عنهما ثلاثة ايام لينجز كلّ منا ترجمة الكتاب الذي كان بين يديه

ورأيناهما مطلّتين من الشرفة ، كانما كأنتا في انتظارنا على غير ميعاد وما كاد زياد يوقف السيارة ، حتى قفز السلم قفزاً ، بينما كنت أُخرج الامتعة بانتظار وصول الخادمة ، ثم رأيته يظهر على الشرفة وقد حمل كلاً منهما على ذراع ، فراحتا تضحكان وتلوّحان لي وتناديانني بصوتيهما الثاقبين

ووقفت انظر اليهم لحظات ولعلها كانت المرة الاولى التي احسست فيها بشعور الاطمئنان الى المستقبل ، والثقة بالغد ، ودعوت الله من اعماقي بان يرزقنا عما قريب غلاماً تقرّ به عيون اسرتنا الصغيرة ، وتكتمل فرحتها

كان ذلك ، ما احسست به في قلبي وما اوحاه الي منظر زياد يحمل ابنتنا وهو يشع فرحة ويختلج بالرضى . ولكن هذا الاحساس لم يدم الا دقائق

فحين دخلت غرفة الجلوس رأيته يحرك مفتاح الراديو ، وابنتنا الصغرى على ركبته ، بينما كانت الكبرى تمد يدها الى جيبه تفتش عن حبة الشوكولا ولما علم ان دمشق طلبت اعتبار البلاغ التاسع لاغياً ، وعادت عاصمة الجمهورية السورية ارتسم على وجهه شبح فجيعة لم اعرفها في ملامح انسان

لقد ذعرت من هذا الوجه الذي يحمل الآن كل علامات الموت واليأس والدمار ، وقد كان الى لحظات يفيض ببشائر الحياة والأمل والثقة وكانت ابنتنا الصغرى قد هبطت عن ركبتيه كأنما شعرت أنه قد كف عن الاهتمام بها ، فانصرفت عنه ، بينما ابتعدت الكبرى وقد تولاها الغضب اذ لم تظفر بغيتها وكان ما يزال ينظر اليها ، ولكنه لم يكن يراها . وكان يلزم صمتاً خيل الي انه لن يخرج منه ابداً ، بل لكأنه كان يود اذ يلتزمه ان يشعر من حوله بانه كان غائباً غير موجود

وظل زياد ملتصقاً بجهاز الراديو كانما ينوي الا يفارقه لحظة ، ولم أره يهتم باستقبال بعض اقاربنا الذين جاءوا

يقضون السهرة عندنا ، واجتزأ بالاصغاء اليهم يتحدثون عما سمعوه وشاهدوه من فرحة اهل المصيف بحركة الانقلاب وشماتتهم بدولة الوحدة التي اعتبروها قد انهارت الى الابد

وخرج اخي سامي الى الشرفة وما لبث ان عاد ليبلغنا ان سكان المصيف قد بدأوا يطلقون الاسهم النارية ويشعلون الحرائق ابتهاجاً ثم أطلق شتيمة ضخمة حمّلها كل ردّه على الشماتة ، وجلس يتمتم كأنما يحدث نفسه .

وأخذت الصغيرتين فأطعمتهما بمعونة الخادمة وحملناهما الى سريريهما ، وظللت قربهما دقائق حتى النعاس فوق جبينهما وحين خرجت كان الجميع مرهفين آذانهم يصغون الى صوت الرجل وهو يتحدث من القاهرة عن حركة التمرد مرة اخرى ، ويروي قصة المقاومة التي رفضها ويعلن ان الأوامر قد صدرت بالزحف الى دمشق للقضاء على حركة العصيان.

وكانت انظارنا جميعاً متجهة الى [illegible] تتطلع الى حلب واللاذقية ودير الزور وتبتهل [illegible] كع على أقدامها

وحين اطفىء مفتاح الراديو ، ظللنا جميعاً صامتين حتى تكلم اخي سامي فسأل زياد

ــ ما رأيك بهذا الخطاب

فلبث زياد جامداً لا يجيب وكانت على وجهه علامات الأسى ، ولم يتكلم الا حين طرح عليه عديله السؤال مرة اخرى ، فقال في هدوء

ـ لقد اعترف الرجل باخطاء قد ارتكبت ، وهذا موقف الشرفاء من الرجال ، ولكن

وكف زياد ، فنظرنا الى عينيه نستجلي المعنى الذي يجول في فكره فيتردد في النطق به ثم رفع رأسه وأضاف

ـ ولكن هناك خطأ مريعاً

قال عديل زياد

ـ أي خطأ تقصد

فقال زياد

ـ مهادنة الرجعية التي اعترف بها الرجل ، ان الثوار لا يهادنون الرجعية ...

فظللنا على صمتنا ، وشعرت بأن الضيق الذي اخذ بصدري كان يتردد في كل صدر ، وفي صدر زياد قبل اي انسان آخر وقلت مع ذلك

ـ ولكن لا يحق لك يا زياد ان تدين على هذا النحو ، فلا ريب ان هناك اسباباً كانت تبرر هذه المهادنة

قال زياد في خشونة غريبة

– اني لا أُدين ولكني اقرر حقيقة يوحيها الاعتراف

ولاحظنا جميعاً ان لهجة غضب عنيفه كانت تسيل في صوت زياد ثم سمعناه يقول بصوت متهدّج

– الا ترون ان هذه المهادنة هي.. الّتي ستقضي على الوحدة والاشتراكية كسب الشعب الاعظم

قال سامي

– ولماذا لا تدين السوريين الذين طلبوا الوحدة ثم انقلبوا عليها

فاجابه زياد

– لا يستطيع احد ان يدين شعباً [illegible]

ثم أضاف كأنه يستدرك:

– غير أني مؤمن اعمق الايمان بان هذا الشعب لن يتخلى لحظة عن الوحدة وان كنت وانا [illegible] ان الذين قاموا بالانقلاب يتبنّون هذا الشعار تبنياً ملتوياً. انهم يضللون الشعب

قال سامي

– وبم نحكم على شعب قابل للتضليل

قال زياد في هدوء

– لن يضل الشعب طويلا ولكنه قد يخضع للحديد

والنار ومع ذلك فلن يطول صمته على حكم الحديد النار.

وفجأة تخلى زياد عن هدوئه ، فـاذا هو يقول في تململ واضطراب

– ولكن ماذا نقول الآن ؟ اننا نتحدث كما لو ان الأمر قد انتهى كلا ! لم ينته شيء !

وصاح في وجوهنا جميعا

– لم ينته شيء بعد ؟ لم ينته شيء بعد !

وحين نهض منتفضاً وخرج الى الشرفـة ، تذكرت ثورات الغضب التي كان يفقد فيها أعصابه ، فيبتعد عن الناس حتى لا يشعر بالخجل من نفسه وحتى يسترد هدوءه رويداً رويداً

ونهض سامي الى الراديو الصامت ، فما لبث صوت دمشق ان انبثق يعلن انضمام حلب واللاذقية ودير الزور ، ويستمر في ايراد برقيات التأييد من مختلف المناطق ، ويتحدى القاهرة والرئيس

وفوجئنا بزياد مرتداً من الشرفة في سورة من الغضب الخانق ، متجهاً الى الجهاز وهو يصيح في شبـه جنون

– أغلقوا هذا الراديو أخرسوه ! أخرسوه !

وظل سامي مبهوتاً ومد يده وهو ما يزال ينظر

الى زياد فلم يهتد الى مفتاح الاغلاق ، وظل صوت دمشق يزعق

– لتسمع القاهرة ليسمع سيادة الرئيس صوت حلب لقد تمّ الآن انضمام جميع قطعات الجيش الى الانتفاضة المباركة ونجحت الثورة نجاحاً كاسحاً لتسمع القاهرة ليسمع

وفجأة رأينا قبضة زياد تنقضّ على لوحة الراديو الزجاجية فتحطمها في قوة ، وهو ما يفتأ يردّد

– أخرسوه أخرسوه !

وهضت مذعورة اذ رأيت تلك اليد وقد بدأ الدم يسيل على ظاهرها ، فسارعت أحمل القطن لأضمدها ، وكان سامي قد أجلس زياد الذي كان ينظر الى يده محمرّ الوجه ، فخيّل الي من فرط تحديقه بها أنه كان يود لو لعق هذا الدم الذي بدأ يقطر منها ، لو يتذوّقه ويتمصصه ويلوّث به شفتيه ووجهه

وساد صمت مرهف ، وخرس الراديو ، فكأنه اضحى حيواناً مقتولاً لا حراك به

واعتذر زياد مستأذناً ، ودلف الى غرفة النوم ، وما لبث الاقارب ان ودّعونا ، تغمرهم موجة غمّ شديد

●

استيقظت في الليل على صوت ابنتنا الصغرى تطلب ماء ، فحملت لها كوباً الى الغرفة المجاورة وحين عدت الى غرفتنا ، افتقدت زياد فلم أره في سريره وأخذتني رعشة، ثم هدأ خفق قلبي اذ وجدته على الشرفة ، جالساً على الأريكة يدخن سيكارة وينظر الى الليل وأدركت أنه لم يستطع ان ينام

وجلست الى قربه في هدوء ، دون ان انبس بكلمة

وبعد لحظات ، التفت الي راجياً مني ان أدخل ، محذراً إياي من ان أصيب برداً في تلك الليلة الرطبة . فأجبته بأننا سندخل معاً ، ثم قلت له بجد :

— إنني لا اكاد أفهم يأسك .. لقد رددت لنا مراراً ان الامر لن ينتهي على هذا النحو ..

فقال

— لست يائساً يا ليلى ، ولكني خائف خائف ان تنجح الحركة نهائياً ، فيضطر الشعب الى تأييدها تحت الضغط والارهاب ، ونعود القهقرى خمسين عاماً الى الوراء، في خسراننا الوحدة والاشتراكية

ولم يدع لي أن اقول شيئاً بل بسط يمناه في اتجاه الشرق وقال بصوت مخنوق مبتهل

— رحماك يا دمشق رحماك يا حلب رحماك يا لاذقية !

وسرت القشعريرة في جسمي فمددت ذراعي الى السماء اقول

— بل رحماك يا الله ! أنقذنا من هذا العذاب !

وأحسست بذراع زياد تحوط كتفي ، وفي الوقت نفسه شعرت برجفة في جسدي وانا أذكر كلمة «العذاب» التي نطقت بها ، وكأنما نطقت بها على غير وعي ولست أدري لماذا اظلمت نفسي فجأة ، وتمثلت لي قادمة على ساعات سوداء تحمل لي من الآلام النفسية والعضوية ما لا قبل لي به

وكأنما حدس زياد عما يعتمل في نفسي من قلق فالتفت يغمرني بحنان ويقودني في كثير من الحيطة والرفق الى سريري وحين طلبت منه ان ينام الى جانبي لم اكن ادري أكانت تلك رغبة مني في ان أهدىء مخاوفه ام في أن أحتمي به من شبح العذاب الذي كان يلوح لي في الافق

واذ أحسست بدفء زياد ، جرؤت على ان أصارح نفسي بسبب خوفي أتراني سأصاب بشيء في اثناء الوضع القريب ، ام يُصاب المولود المنتظر ؟

وشعرت بلهيب حار يسري في جسمي حين اختلج حلقي بسؤال أوضح أتراني سأموت أنا ام يموت الطفل ؟

والتفتُّ فجأة الى زياد أحدّق فيه عبر الظلام ، وكلي خوف ان يكون قد حزر ما في ذهني من تساؤل. وكنت أحسب ، حين ألفيته قد استسلم للنوم ، بعد تلك الساعات الطويلة من الأرق ، اني سأستردّ بعض طمأنينتي ، ولكني لم أنم بعد ذلك لحظة واحدة ، كأنما زياد قد أسلمني أرقه وأغفى.

وظللت مفتحة العينين حتى تسرّبت الي أول شعاعة من الفجر. فنهضت على مهل ورحت أعدّ آخر الحوائج والامتعة التي لم يكن قد أُتيح لنا تهيئتها في الاسبوع السابق.

واذ وصلنا الى العاصمة ، كان أول عمل أتى به زياد نقل جهاز الراديو من البيت الى المكتب الملاصق له. وكنت كلما ترددت على المكتب رأيته يستمع الى كل ما تذيعه المحطات على اختلاف نزعاتها ، مُدناً دراعه الى الجهاز في رفق ، كأنما يكفّر عما فعله في المصيف ازاء الجهاز الآخر.

وظل زياد طوال اليومين التاليين ملازماً مكتبه لا يبارحه

ولا يكاد يتصل بأحد الا لأمر ذي شأن وقد قرأت في عينيه ما يشبه الاستسلام ، كأن ما سمعه من الاذاعات المختلفة قد أرسى في نفسه قواعد الامر الواقع ورسّب في أعماقه خيبة لا مفر منها

ولم أره بعد ذلك منفعلاً الا في مناسبتين اولاهما ساعة سمع بيان التأييد للحركة الانفصالية ، وسمع اسماء الموقّعين عليه من الزعماء السوريين غير ان انفعاله في هذه المناسبة الأولى اقتصر على لهجة السخرية حين قال

— تصوّري يا ليلى ان بين الموقّعين على هذا البيان زعيمين من زعماء الحزب الذي نعتقد أنه الحزب العقائدي الوحيد الذي يؤمن ايماناً مخلصاً بالوحدة والاشتراكية

فتساءلت امامه عن السبب الذي يبرّر هذا الملك ، فقال بهزء

— يريدون بأي ثمن ان يشتركوا في الحكم الذي حرموا منه فترة من الزمن

ثم قال كأنه يستدرك

— انت تعرفين اني لم أقر ضرب الحزب في الماضي ، ولا إبعاده عن المشاركة في الحكم ولكني لم أكن انتظر منه اليوم ان يسلك طريق الانتهازية التي كان

يعيبها ابداً على حزب آخر انه هنا يبيع الغاية كسباً للوسيلة !

وبعد ان صمت لحظات ، أطرق برأسه الى الأرض ، وقـــال

– تمثّلي الآن يا ليلى اجيال الشباب الطالعة وهي تري العقيدة التي تعتنقها يُطوّح بها وتُطعَن قدسيتها بهذا الاستخفاف! أليس في هذا المسلك انكار لماضي ذلك الحزب ، وتشكيك في مستقبل العقيدة بالذات

ثم أغمض زياد عينيه ، كأنما يجلب الى أعماقه ظلاماً كان ابداً يدافعه بالأمل والايمان .

ورأيته يستسلم للانفعال مرة اخرى ، حين استمع الى بيان الرئيس الذي ترك فيه لسوريا مصيرها وأنهاه بعبارته المتهدّجة الباكية ، أعان الله سوريا الحبيبـــة على أمرها

فلقد وضع زياد وجهه بين يديه ، وانفجر في بكاء أخذ يهز كتفيه وظهره واطرافه ويبقى دقائق يبكي كالاطفال ، كأنه لا ينوي ان يصمت وحين اقتربت منه ، وأنا أهتز مثل اهتزازه ، لأذكره بأنه هو الذي كـــان يدعو منذ ايام الى معالجة قضايانا على غير ذلك الأساس الانفعالي ، قال لي بما يشبه الابتهال

— دعيني يا ليلى ابكي فترة اخرى ... دعيني افرغ كل ما في عيني من دموع ... لاني مؤمن اني لن ابكي بعد الآن ابداً !

وعاد الى نشيجه الذي اخذ يخفت رويداً رويداً

ومساء اليوم التالي ... طلبت من زياد ان نخرج قليلاً لنتنسم هواء البحر وليتاح الي ان امشي [illegible] الزمن ، استجابة لتوصية الطبية . ولكني كنت [illegible] كل شيء الى حمله على الخروج من ذلك [illegible] اغرقته فيه دوامة الاذاعات والانباء والصحف [illegible]

وأوقف زياد السيارة عند رصيف [illegible] الروشة، وهبطنا نمشي في تثاقل ... ولكني ما [illegible] يتوقف فجأة امام بناية ضخمة وهو يقول لي

— اسمعي ... ما رأيك بأن نزور [illegible] ؟

فسارعت اعارضه ليقيني بأن هذه الزيارة لن تعود عليه بهدوء الاعصاب الذي كنت أبتغيه من ذلك الخروج . فقد كان سمير صديقاً من اصدقاء زياد السوريين ... ولكني كنت اعرف ان القضية القومية لا تشكل بأي حال همّاً من همومه الرئيسية ، ولهذا ، لم اكن اتوقع ان نصيب

من هذه المقابلة أية راحة نفسية كان زياد خاصة بأشد الحاجة اليها

ولكنه اقنعني بالزيارة ، محتجاً بأنه يود أن يسمع رأي صديق سوري يعيش خارج وطنه ، في تلك الحركة .

واستقبلنا سمير بالترحاب ، وكان البشر يطفح من وجهه ، وكان لديه أخ له تاجر في دمشق حبسته الحركة دون عودته الى مقر عمله وسرعان ما أخذ سمير وأخوه يتحدثان عما كان يعانيه السوريون من تضييق على الحريات والأرزاق ووصف سمير الحركة بأنها في آخر انطاف « ثورة خبز » وحين علقت على ذلك بقولي

ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، ولا سيما الانسان العربي اليوم

انبرى أخو سمير يسرد لنا قصصاً كثيرة وحكايات عما أصاب التجار من خسائر وما لحقهم من اضرار في رزقهم ومعيشتهم ، وأضاف سمير بأن علينا ان نعترف بأن الله لم يساعد الوحدة اذ حبس المطر طول هذه الأعوام الثلاثة من عمرها

ولبث زياد صامتاً يسمع الأعصاب ، ثم اكتفى بالقول

ـ سوف نكون سذجاً او عمياناً اذا لم نعترف بالأخطاء.

لقد ارتُكبت اخطاء كثيرة ، أشار اليها المسؤولــون في الاقليمين ، ولكنها مهما بلغت من مدى لا تبرر الانفصال.

واستطرد زياد بعد قليل

– ان قضية الوحدة ليست [illegible] فقط ، بل هي في الدرجة الأولى قضية معنوية [illegible] ان العوامل المادية تؤثر فيها الى حدود بعيدة [illegible] انها لا تبلغ ان تقضي عليها وحين ولدت [illegible] تكون الدوافع المادية هي التي خلقتها

قال سمير

– وما هو الحل الذي كنت ترتضيه لوضع حد للشكاوى التي ضج منها السوريون ؟

فأجاب زياد

– كان ينبغي للأوضاع ان تصحّح داخل إطـــار الوحدة

قال سمير

– لقد أتيحت هذه الفرصة للقـــاهرة كما تعلم ، ففضلّت ان تفوّتها

قال زياد في هدوء

– لو لم تكن الحركة انفصالية ، لما أعوزتها الوسائل لطلب تصحيح الاوضاع

— أية وسيلة مثلاً ؟

— كان بوسعها فور ان أستتب الأمر لها ان تعلن انها تريد الابقاء على الوحدة ، وعلى الجمهورية العربية المتحدة وتدعو القاهرة عاناً الى ذلك ، على ان تصحح الاوضاع وتزال اسباب الشكوى ، اذا كانت هذه الأسباب لا تمس جوهر الوحدة والاشتراكية وحين تعلن دمشق ذلك ، وتشهد الشعب العربي على هذا كله ، فلن يكون امام القاهرة الا ان تستجيب ، والا فقدت ثقة الشعب العربي

قال سمير

— إنها دائماً اقتراحات المثالية يا زياد فمتى تصبح واقعياً ؟

قال زياد باسماً

— حين تفسر لي يا سمير ما تعنيه بواقعيتك !

وضحك سمير ، فعلمت انه راغب في انهاء النقاش ، فتلك كانت طريقته في وضع حد للمناقشة ورأيته يبسط لزياد جريدة لبنانية ويطلب اليه ان يقرأ مقالاً كتبه فيها صحفي لبناني متطرف ، وقرأ لنا زياد مقاطع من المقال كان سمير واخوه يضحكان لها ، بينما كان يكتفي هو بالابتسام ، حتى قرأ آخر عبارة من المقال ، وهي

تنص على أن « السوري حرف لا يُقرأ » فالتفت الى سمير يقول

– أهذه هي الواقعية التي تقصد

فاستغرق سمير في الضحك ، ثم قال

– لماذا تريدني ان اتعب نفسي ؟ لقد وقع الانقلاب، وانتهى الامر فلنقرّ هذا الوقع ، ونعمل على أساسه

ورأيت في عيني زياد تعبير استياء فخشيت ان يفقد أعصابه ولكن الجرس قُرع في تلك اللحظة فنهض سمير يفتح الباب وحين دخلت « هتاف » التفتّ الى زياد في شبه دهشة فقد كنا نعرف ان العلاقة كانت قد انقطعت بين سمير وهتاف منذ شهر

وحيّتنا هتاف بحيوية دافقة ، وسألتني عن صحة الطفل الذي سيولد ثم جلست واضعة ساقاً على ساق كاشفة عن ركبتيها بلامبالاة وخطر لي بعد انتهاء المجاملات الأولية ان اسألها رأيها بالحدث فتريثت لحظة ثم اجابت بتامّل

– إنه أسعد يوم في حياتي ..

ثم روت كيف اتصل بها سمير صباح يوم الانقلاب يزف اليها النبأ وقالت

– كنت من شدة الفرح بحيث حسبتني أطير

ولاحظت بعد حين ان يتململ في مجلسه ، فاستأذنا بالذهاب وعند الباب ، قال سمير

— تريّث يا زياد ، واتخذ الموقف الذي تمليه عليك مصلحتك ومصلحتك انت هـي في دمشق ، لا في القاهرة

فظلّ زياد يحدّق لحظة في سمير الذي كان ما ينفكّ يقهقه ، ثم أخذ بذراعي ومضى من غير أن يلـوي او يقول كلمة ، وحين بلغنا أسفل الدرج ، قال زياد

— كان ينبغي الا ألحّ بشأن الزيارة

فقلت

— لا بأس انا نفيد من كل شيء

وقال زياد باسماً

— ارأيت يا ليلى ؟ لقد عاد « الانقلاب » فجمعهما!

قلت

— بل هي المصلحة الخاصة

قال زياد

— وهل من فرق بين الانقلاب والمصلحة الخاصة

وعاد زياد يلازم المكتب ولكني بدأت أحس أنه

يعاني ضيقاً لا يجد له متنفساً وكان ذلك يطوف في عينيه شروداً ، ويرتسم على ملامحه شبيهاً بالحذر والجمود. وجعلت أتردد على المكتب وقلق عنيف ينتابني عليه .وحين دعاني للاصغاء الى حديث ذلك الشيخ من اذاعة دمشق كان على وجهه اشمئزاز وغثيان ، ولم يستطع الاستماع فأقفل مفتاح الراديو وهو يقول

— هذا الشيخ الذي يتحدث عن الاخلاق الكريمة ويصم الرئيس بكل عار ، أتعرفين من هو

— لا لا أذكر أني سمعت اسمه

— إنه مدرس الأدب الذي تحدثت عنه يوماً في احدى قصصي ذلك الذي صُرف من المعهد لما أتهم به من سلوك مشبوه ، فعاد الى دمشق ليصبح قاضياً شرعياً

ثم روى لي زياد انه استمع الى عدد من الادباء السوريين الذين يحترمهم يتحدثون من اذاعة دمشق أحاديث زلفى وتملق للعهد الجديد

وقال لي ذات لحظة ، والتمزق في عينيه

— وماذا بعد يا ليلى ؟ الى أين نحن سائرون طريق ايجابي نسلك الآن

وأيقنت أن هذا السؤال هو الذي يطرحه الآن ملايين الشبان على انفسهم ، وهم متوزعون بين ايمانهم بقوميتهم ،

وخيبتهم من النكسة ، وصراعهم لمختلف التيارات التي تتجاذبهم ويقول لي زياد

— اننا بحاجة الى شيء جذري يردّ لنا الثقة المفقودة ويمدّنا بقوة جديدة لاستئناف النضال

وفي الليالي الثلاث التالية عاودني ذلك الشعور الذي انتابني ليلة وجدت زياد على الشرفة في المصيف ، فكنت أعاني حين لا يستبدّ بي الأرق ، كوابيس وأحلاماً مزعجة ، ويستيقظ زياد أحياناً على صرخات أطلقها من أعماق النوم اذ أراني وأنا أضع طفلي الذي يولد ميتاً أو أراني أعاني سكرات الموت، بعد أن أكون قد وضعت مولودة أنثى

وقد استدعى زياد الطبيبة ذات صباح ، بعد أن أعديته بذعري من أن حركة الطفل في أحشائي قد انقطعت ولكن الطبيبة أبلغتنا بأن كل شيء طبيعي ، وبشّرتني بأن الوضع أقرب مما كنت أقدّر له

غير ان ذلك لم يردّ الينا إطمئناننا وهدوءنا وكنت أذكر بلا انقطاع تلك الدعوة التي صعّدتها تلك الليلة بأن ينقذنا الاله من العذاب أجل كان ذلك عذاباً لم يشأ الله ان ينقذنا منه كأنما أراد عز وجل أن يحمّلنا نحن عبء الوزر الذي سقط على وطننا وانساننا وكنت

أسترد بعض العزاء أحياناً وأنا اتساءل « يجب ان نحمل قسطاً من هذا العذاب ، أفليس كل منا مسؤولاً ولو جزئياً عن كل ما يصاب به

وخطر لي ساعة أن أصرف زياد ، بطريقة ملائمة ، عما كان مستغرقاً فيه من تمزق ويأس وظلام ، فاقترحت عليه ان يسافر لبضعة أيام الى بلد أوروبي يلتمس فيه بعض السلوى ، فابتسم وقال وهو يحيط عنقي بذراعه

— ان هذا فرار قد يُقدم عليه سواي من «الحزبيين» !

●

قال زياد وهو يمسك بيدي في حنان

— لا أدري ما الذي سيقوله الرجل الآن ، ولكن قلبي يحدثني أنه

وانقطع فجأة حين حمل الأثير صوت الرجل الى مسامعنا يقول في قوة واعتان

« لقد دقت ساعة الثورة .. ان طريق الثورة طريقنا .. دقت ساعة العمل الثوري »

وقال زياد ، وبده ما تزال في يدي أحس نبضها الدافىء

— ذلك هو طريقنا الحقيقي ، يصحح الرجل انحرافه ،

فيعود كما كان ، رمزاً للثورة العربية الدائمة

وشعّت عينا زياد بذلك البريق الذي لمحته فيها منذ ثلاث سنوات

وبعد بضع ساعات ، في تلك الليلة نفسها ، وضعت غلاماً قال زياد إنه أجمل مولود رآه في حياته

الشهداء

مسرحية

الأشخاص

عمر حمد سعيد عقل عبد الغني العريسي جرجي الحداد	من المناضلين العرب في العهد العثماني
نجيب	حارس سجن عاليه
سلمى	زوجة سعيد عقل

الفصل الأول

غرفة في مكاتب جريدة « الاتحاد العثماني ». سعيد عقل جالس وراء مكتبه يكتب ، الى اليمين مقعد يجلس عليه عمر حمد وهو يطالع صحيفة

سعيد (رافعاً رأسه عن الاوراق التي أمامه) — الى متى تظل صامتاً هكذا يا عمر ؟ قل أيّ شيء ؛ انني لا أطيق بعدُ هذا الصمت !

عمر (بهدوء) — وماذا تريدني ان أقول ؟

سعيد — اسأل سؤالاً ، أجب جواباً، علّق بأية كلمة !

عمر — تكلمنا كثيراً يا سعيد ، حتى أصبحت زاهداً بالكلمة ، الا ترى الآن انها سلاح ضعيف ؟

سعيد – تعرف يا عمر ان قيمة السلاح انما هي في اليد التي تحمله

عمر – لقد تعبت أيدينا يا صديقي

سعيد – المهم الا تتعب منا النفوس

عمر – هذا دأبك يا سعيد انك تحرم علينا ان نستسلم لليأس

سعيد – انه عدونا الأول أما السفاح فيأتي بعده (يصمت لحظة ثم يضحك) لقد أرسل لنا منذ أيام من يحذّرنا ...

عمر – يحذركم ؟ ومم ؟

سعيد – من أن ما نكتبه في الجريدة سيعود علينا بالوبال

عمر – كأنكم لا تعرفون ذلك !

سعيد – وهل ، بربك ، نقول غير الحقيقة ؟

عمر – إنه يريدكم الا تقولوها !

سعيد – يريدنا ألا نقول إن المجاعة تتفاقم في البلاد؟

عمر – وهل يحسّها هو ، هذه المجاعة ؟

سعيد – أقسم لك يا عمر اني رأيت اليوم ، وأنا قادم الى المكتب ، امرأة مسنّة تبحث في الأقذار والنفايات عما تقتات به !

– أضف الى هذا المشهد مشهد القطة !

سعيد – أية قطة ؟

عمر – تلك التي رآها جرجي يطاردها ثلاثة صبية
وكانت هزيلة ، فتمكنوا من القبض عليها

سعيد – وهل

عمر – أجل يا صديقي بعد ان شووها

سعيد (رافعاً يديه الى السماء) : ارأف بأولادنا
يا إلهي رحماك يا رب !

عمر – كان جاري بالأمس يقتلع النوافذ الخشبية في
وحين سألته « آلا تخشون البرد ؟ »
ضحك ثم قال بصوت مرتعش « البرد ...
يستطيع الأولاد ان يقاوموه اياماً أما
الجوع

سعيد – أمس فقط ... سبعة وعشرون أهلكتهم المجاعة !

عمر – منذ ولدنا ونحن في مجاعة ان خبز الباب
العالي لن يشبعنا أبداً يا سعيد !

سعيد – عجباً كدت أنطق بفكرة مشابهة انا لن
نسيغ الخبز قبل ان نستقل

عمر – هذا حق، ان الجوع هو الذي يفجر احساسنا
اليوم بأن الظلم قد بلغ ذروته

سعيد – وهل هناك أبعد ظلماً من قانون « التنسيق » هذا الذي نشروه أخيراً ..؟..

عمر – قيل انهم تمكنوا بموجبه من اقصاء معظم الموظفين العرب هنا ...

سعيد – حتى وزير الأوقاف ، العربي الوحيد في الوزارة ، أقالوه وعيّنوا تركياً بدلاً منه !

عمر – (يبسط له الجريدة التي كان يقرأها) – اقرأ هنا بالله عليك ! لقد حظر سفيرهم في واشنطن على الجالية العربية مخاطبة السفارة بغير اللغة التركية ...

سعيد (يتناول الجريدة) – اذا كان هذا مضحكاً يا عزيزي ، فمن المحزن ان بعض الاتحاديين هدموا قبر المرحوم عبد القادر الجزائري واستخرجوا رفاته ، فنثروه في الهواء !

سعيد (كأنه يكمل عنه) – لأنه مناضل عربي دافع عن وطنه طوال خمس عشرة سنة ويخشون ان نتخذه مثالاً نحتذيه !

عمر – الا ترى ان الارهاب الذي يأخذوننا به ، يزيد قضيتنا مكاسب ؟

سعيد – بلى . ان مطامحنا تزداد يوماً بعد يوم .

عمر — تصور لو انهم استجابوا لمطالبنا في اللامركزية وجعل لغتنا لغة رسمية ....

سعيد — لو فعلوا ذلك ، لما كان أحد منا يطلب الآن الاستقلال عن السلطنة العثمانية

عمر — ان صحف جمال باشا تصرح علنا بأنهم يريدون « تتريكنا »

سعيد — وهو من أجل هذا ينكل بنا ويشرد عائلاتنا وينفيها الى الاناضول ....

عمر — هل تعتقد يا سعيد ان التاريخ قد عرف رجلاً أشد نفاقاً من جمال باشا ؟

سعيد — ولم يعرف كذلك من هو أشد غدراً

عمر — ان سياستهم كلها ، منذ مؤتمر باريس تقوم على النفاق والغدر

سعيد (مقاطعاً) — وعلى محاولة التفرقة فيما بيننا ، مسلمين ومسيحيين

عمر — انك تشير طبعاً الى صنيعتهم عبد العزيز الجاويش الذي حرضوه على القيام بدعوة الجامعة الاسلامية لاحباط مساعي المطالبين بالاصلاح !

سعيد — اجل ، يا عمر ! ولكن خاب فألهم

العروبة اليوم تجمعنا لحربهم

(يدق الباب ويدخل عبد الغني العريسي فينهضان لتحيته مؤهلين سعيد يدعوه للجلوس على مقعد الى يسار مكتبه يجلس عبد الغني والتعب باد عليه)

— أراك متعباً ايها العزيز ؟

عبد الغني — الأصح ، يا عمر اني حزين .

سعيد — وهل من جديد

عبد الغني — لا . غير اني كنت في زيارة آل المحمصاني.

عمر — ألم تخف أحزانهم قليلاً

عبد الغني — بل يخيل إلي انها تعمق وتزداد . لكأنهم في مناحة دائمة

سعيد — بالرغم من ان تسعة أشهر

عبد الغني — تسعة أشهر ، أجل ، كأنها كانت بالأمس. ولكن الاب حدثني مرة أخرى عن محمد ومحمود

سعيد — كيف تعانقا طويلاً امام المشنقة ، وكيف أخذ كل منهما يضم الآخر على القلوب ..

عمر (مكملاً) وكيف صعدا معاً الى منصة الاعدام بقدم ثابتة ووجه بسام ، وكانت عين كل منهما منطبعة في عين أخيه

عبد الغني — واليوم أجهش باكياً وهو يروي كيف التفت محمد الى منفذ الاعدام وقال له

« لي منك رجاء واحد قبـــل موتي وهو ان تنفذ الاعدام بي وبأخي في وقت واحـــد ، حتى لا يتعذب أحدنا عرأى اخيه يموت امامه ! »

(يصمت الجميع لحظـة)

عمر — يا للأب المسكين !

سعيد — كانا بطلين في طليعة موكب الاحرار

عبد الغني — بدأت أخشى على الأب المسكين ان يصاب بالجنون انه ينهض بين فترة وأخرى ويردد العبارة التي نطق بها ابنه محمد قبل ان يرفس الطاولة تحت قدميه « يشهد الله اني لم أخن وطني دقيقة واحدة ، وان ما قمت به كان عن اعتقاد ثابت بأني أخدم بلادي واني اموت شهيـــداً فلتحي امتي وليحي العرب ! »

(يصمت لحظة ، بينما [illegible] وعمر برأسيهما) ثم يجلس ويتم[illegible] وقد وضعوهمـــا في حفرة واحدة [illegible] ينظر الى البعيد ، ويصمت ، ويطول صمته حتى يخيل اليك انه لن يتكلم بعد أبداً]

عمر — أحد عشر بطلاً أيها الصديقان ! وكل منهم استقبل الموت كما استقبله محمد ومحمود عبد الكريم الخليل ، صالح حيدر ، مسلم عابدين ، نايف تللو ، عبد القادر خرسا

سعيد — ولا تنس محمود العجم ، وسليم عبد الحادي ، ونور الدين القاضي ، وقبلهم الشيخ فريد وفيليب الخازن

عبد الغني — كانوا الرواد في درب الفداء !

عمر — ولن يكون لأي منا بعدُ مجال للتراجع في هذا الدرب !

سعيد — الا ان يكون خائناً ، أو ان يهزأ بهذه القافلة من الشهداء

عمر (ملتفتاً الى عبد الغني) — أي جديد من الأخبار يا عبد ؟

عبد الغني — ليس عندي جديد لقد انقطعت عن قراءة الصحف !

سعيد — منذ ان عطلوا لك « المفيد » (يضحك) كم مضى على تعطيلها الآن

عبد الغني — زهاء أربعة أشهر

سعيد — ولكن لا تنس يا عبد ان « الاتحاد » هي أيضاً جريدتك !

عبد الغني – بورك بك يا سعيد ، انك تحمل رسالتنا جميعاً

(يدق الباب ويدخل جرجي الحداد)

سعيد – أهلاً جرجي ، (مازحاً) حسبتك لطول غيبتك قد مت جوعاً

جرجي – أفضل ميتة أخرى يا سعيد (بعد لحظة) ألم تسمعوا بالنبأ ؟

عمر وعبد الغني – أي نبأ

جرجي – لقد اعتقل السفاح عدداً من رفاقنا

سعيد (بلهفة) – ومن هم ؟

جرجي – عرفت منهم عبد الحميد الزهراوي وشفيق المؤيد والأمير عمر الجزائري ورفيق رزق سلوم وعبد الوهاب الانكليزي ورشدي الشمعة

(لحظة صمت)

عمر – هذا خطير أيها الأعزاء ان هذه خطوة ستتبعها خطوات

عبد الغني – كنا نتوقعها منذ حين

سعيد – هل نستطيع أن نفعل شيئاً قبل أن يصدر الديوان العرفي أحكامه ؟

عمر – ونحن نعرف ما عساها تكون أحكامه !

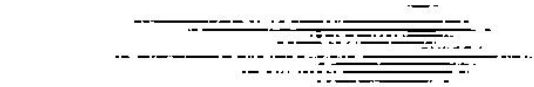

عبد الغني – سأبادر الى ارسال رسول الى الأمير فيصل، وهو الآن في دمشق. يجب ان يتوسط لانقاذهم.

جرجي– أقترح ان نتوجه الى المقر السري للحزب لتداول في الأمر

عمر – سنكون هناك في مأمن

(ينهض الجميع ، باستثناء سعيد)

سعيد – سألحق بكم عما قليل لا بد ان أكتب تعليقاً على هذا الحدث الخطير

عبد الغني – اشتدي أزمة تنفرجي !

سعيد – سيكون هذا عنوان مقالي !

جرجي– عسى أن يأتي انفراج الأزمة الآن وألا تشتد أكثر من ذلك (يتبادلون نظرات قلقة مدركين ما تعنيه هذه العبارة)

عبد الغني – هيا بنا هل هناك مجال للتردد بعد؟ ان الشعب يتطلع الينا في هذه الساعات بالذات.. فهل فينا من يخيب ظنه ؟

(يخرجون على عجل يعود سعيد الى مكتبه بعد توديعهم ويجلس للكتابة تمضي دقيقة ، ثم يطرق الباب. يضطرب سعيد وينهض على حذر ليسأل من الطارق . يفتح الباب)

سلمى (وهي داخلة) — من [illegible] ؟

سعيد (يأخذ يدها بحنان) — تعالي يا سلمى ... انني
بحاجة اليك (يقودها الى مقعد عريض في
احدى الزوايا ، ويجلسان)

سلمى (ملاحظة اضطرابه) — ماذا بك يا عزيزي ؟

سعيد — لا شيء ... لا شيء ، يا سلمى .

سلمى — بل ان هناك أشياء ، أنت شديد الاضطراب.

سعيد (يحني رأسه بيأس) — لقد أصبحت حياتي
شديدة القسوة يا سلمى

سلمى (ممسكة بذراعه) — أعرف انك تعاني كثيراً
يا سعيد ، ولكني واثقة من قوتك وصمودك
(تصمت لحظة) انك صاحب رسالة يا عزيزي !

سعيد — ولكن ... أليس أصحاب الرسالات من البشر
يا سلمى ؟ أحس أحياناً بأني انسان ضعيف
جداً

سلمى (تنظر اليه وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى)
انك على أي حال أقوى مني ... وأذكى بلا
ريب !

سعيد — لماذا تقولين ذلك

سلمى – لأنك سبقتني إلى الشكوى كان في نيتي
وأنا أقصد اليوم مكتبك ان احدثك عما أعانيه
من ضيق وتبرم

سعيد – أنت على حق يا سلمى

سلمى – فإذا بك تشكو الي أنت ما تعانيه ! اننا
لا نكاد نراك في البيت تخرج في ساعة
مبكرة ، وتعود في ساعة متأخرة (صمت)
والأولاد يا سعيد ؟

سعيد (منتفضاً) أبتهل اليك يا سلمى لا تذكريني
بهم انهم وحدهم القوة التي تملك ان تثنيني
عن طريقي ولكني اذ افكر انني أناضل
من أجلهم هم أيضاً ، أتقبل هذه القسوة التي
أعيش فيها ازاءهم ...

سلمى – انهم يسألونني عنك بلا انقطاع ..

سعيد – تلك القبلة التي أضعها على جباههم وهم نائمون،
هي زادي طوال النهار (صمت) كم أحن
يا سلمى الى ان أوفر لكم حياة راحة واطمئنان...
ولكن (يصمت)

سلمى – ماذا يا سعيد ؟

سعيد – عرفت يا عزيزتي (يتردد)

سلمى ــ ماذا عرفت يا سعيد ؟ قل لي ، صارحني بربك !

سعيد ــ أجل ، من الأفضل ان اصارحك يا سلمى . يجب ان تطلعي على كل شيء اسمعي اذن (يتردد من جديد ، ثم يعزم) لقد اعتقل اليوم عدد من رفاقنا في الحزب اللامركزي...

سلمى (مضطربة) ــ أتعني انه ربما

سعيد ــ من يدري يا سلمى ؟

سلمى (تتشبث به بحركة غريزية) لا يا سعيد .. أرجوك

سعيد ــ ماذا يا حبيبتي ؟ ما عسانا نفعل ؟

سلمى ــ أرجوك يا سعيد ، لا تعرض نفسك [illegible] .. بل إنني أكاد أقترح عليك ان [illegible] (تتوقف)

سعيد ــ أتعني ماذا تقترحين ؟

سلمى ــ الا يمكننا ان نبتعد ؟ ان نختفي عن الأنظار ؟

سعيد ــ لا يا سلمى لا لم [illegible] منك ان تقولي ذلك

سلمى ــ ولكنك تنسى الاولاد ! [illegible]

سعيد ــ لا لــن أهرب يا سلمى ان الصحفي الحر لا يفر من المعركة

سلمى – ولكني أخشى عليك يا سعيد ان

سعيد (يقاطعها) – ان كل مواطن منا معرّض للظلم والاضطهاد في هذا العهد الاسود وما دمنا لا نستطيع ان نتجنّب هذا الاضطهاد ، فلنواجهه بشرف وإباء !

سلمى – انت تبعث فيّ الفخر والاعتزاز يا سعيد ، ولكن مع ذلك (يبدو عليها الحزن) أشعر بأن الأيام ستزداد قسوة علينا

سعيد – تعرفين يا سلمى مبلغ ما أعلّق من قيمة على حبّنا غير أني لا أستطيع ان افصل هذا الحب عن قضيتنا كلها انه يزداد روعة وعمقاً بمقدار ما تحرز قضيتنا من انتصارات !

سلمى – ولكني أرى هذه القضية تزيد تعقداً يا سعيد .

سعيد – وهذا يزيدنا اصراراً على مواصلة النضال اننا لا نعمل لأنفسنا يا سلمى .. وكم سنكون سعداء اذا اتيح لنا ان نجنّب أولادنا وأحفادنا ما نكابده من ظلم وطغيان ..

سلمى (تقترب منه وتتناول كفه) – انني افهمك يا عزيزي وحبذا لو كان بإمكاني ان أساعدك في شيء

سعيد – ان لم تكن حاجة البلاد اليك ملحّة ، في هذه الفترة ، فليس كذلك البيت والاولاد

سلمى – أجل يا سعيد انني أوافقك على أن بيتنا ليس إلا وطناً صغيراً لنا

سعيد (يحيط كتفها بذراعه) – كم أنا سعيد اذ أسمعك تقولين هذا يا سلمى ، يا رفيقة حياتي الغالية (يضمها اليه) والآن هل تسمحين لي باتمام مقالي ؟

سلمى – وبعد ذلك ؟

سعيد – يجب ان أتوجّه الى مقر الحزب (لحظة) ولكن انتظريني فأصحبك قبل ذلك الى المنزل.. وسيتاح لي بذلك ان أرى الأولاد قبل ان يناموا

سلمى – اجل ، سأقرأ هنا بعض الصحف ريثما تفرغ من مقالك (تأخذ صحيفة)

سعيد – سلمى

سلمى – نعم يا سعيد ..

سعيد – انظري إليّ لحظة ، وابتسمي (تبتسم) أجل ، ابتسمي هكذا يا سلمى ، فسوف استمدّ من من هذه البسمة زاداً يعزز كفاحي من أجل

تحرير وطني

سلمي – وستكون هذه البسمة يا سعيد عهداً مني لك ان أبقى على حبك الى الأبد !

(يبتسم سعيد بدوره، ثم يتناول قلمه ويعود الى الكتابة. تغيب صورة سلمى وهي تبتسم ، وصورته وهو يكتب مع موسيقى خفيفة)[1]

الفصل الثاني

في احدى زنزانات السجن العرفي في عاليه، غرفة ضيقة ليس فيها إلا قطع من الحصير شباك في الجدار الأيمن. عبد الغني العريسي يقرأ في صحيفة يحاول ان يخفيها كلما سمع حركة أو وقع اقدام في الخارج . جرجي الحداد قابع في احدى الزوايا يفكر عمر حمد واقف ازاء الشباك كأنما ينتظر احداً خيال الحارس نجيب يظهر بين فترة واخرى وهو يمر امام الشباك

عمر (يشير للحارس ان يقترب من الشباك) – هل يسمح للمعتقل .. ان يتبادل مع الحارس التحية على الأقل ؟

١ – كتبت هذه المسرحية في الأصل برسم التلفزيون اللبناني

نجيب (يلتفت يميناً وشمالاً كأنما [illegible] ان ليس هناك من يراقبه) كلا ولكني أنا أسمح [illegible]

عمر (دهشاً وعلى حذر ، في الوقت نفسه) — ولماذا ؟

نجيب ــ لانني (هامساً) أعرف من أنتم

عمر ــ كيف ومن نحن ؟

نجيب ــ إنني اؤيد حركتكم (يسير الى امام)

عمر (يشير الى عبد الغني وجرجي) انه الحارس ليس عدواً لنا

عبد الغني ــ وماذا تعني ؟ هل نستطيع ان .. نثق به ؟

عمر ــ لا أدري ولكني حين نظرت في عينيه شعرت بالاطمئنان

جرجي ــ ألا تراه يخدعك ليأخذ بعض الأسرار

(يعود نجيب الى الشباك)

نجيب (هامساً) ــ في غفلة من حارس الزنزانة المجاورة، كلفني الامير عارف الشهابي ان أبلغكم تحيته ..

عبد الغني ــ الامير عارف هنا ؟

نجيب ــ نعم ، ومعه أربعة آخرون (يلتفت حذراً) وفي زنزانة اخرى، يوجد خمسة معتقلين أيضاً ..

عبد الغني ــ قل للامير عارف ان عبد الغني العريسي يسلم عليك

نجيب – سأحاول ذلك ... إذا غفل عني الحارس اللعين!
انه اتحادي لئيم! (يشير لهم فجأة ان يرتدوا
عن الشباك) اسمع وقع اقدام مدير السجن
حذار

(يرتدّون متراجعين الى داخل الزنزانة)

عمر – يبدو اننا وُفقّنا الى هذا الحارس!

جرجي– أتعني ان بوسعه ان يهيء لنا الفرار

عمر – من يدري؟ (يلتفت الى عبد الغني) ما
رأيك يا عبد؟

عبد الغني – اذا كان بوسعه ان يفعل شيئاً، فليسرع!

جرجي– لماذا؟ هل تتوقع شيئاً؟

عبد الغني – أعتقد ان الأمور تسوء وتنذر بالشر

عمر – تذكرون اننا كنا نبحث عن وسيلة ننقذ بها
رفاقنا (يشير الى الزنزانة المجاورة) فإذا
بالسفاح يغدر بنا

جرجي– ان أحداً لا ينسى كيف غدر بصديقه عبد
الكريم الخليل!

عمر – منذ ذلك التاريخ كان ينبغي علينا ان نتبع
خطة أخرى

جرجي– ولكننا كنا نعتقد ان الباب العالي سيفي ببعض
وعوده على الأقل

عبد الغني – يجب ان نعترف بأن تفكيرنا لم يكن يخلو
من السذاجة كنا نرى جمال باشا ينقـــل
جميع الوحدات العسكرية العربيـة الى ميادين
القتال لأنه لم يعد يأمن جانبها، ويملأ السجون
بالمعتقلين

جرجي– الواقع أنه كان يأمل ان يجعل من سوريا ولبنان
امارة له بعد ان تنجح حملته في مصر

عمر – ولكن بعد ان فشلت هذه الحملة حصر اهتمامه
بقيادة جبهة عاليه ، والديوان العرفي !

(يضحكون ضحكة قصيرة)

(يطل وجه الحارس نجيب من خلف الشباك ويشير
الى عمر ان يقترب)

نجيب (هامساً) – سأحاول ان انقذكم ! انني لم
أعد اطيق هذه المهنة ، حراسة الأحرار المرشحين ..
للاعدام !

عمر – ماذا تقول ؟ هل أنت متأكد من انك سوف ..

نجيب – حين جاءوا بكم ، قال لي مدير السجن
انتبه جيداً ، ان هؤلاء أخطر العناصر التي

عرفها السجن (يقترب عبد الغني وجرجي من الشباك مرة أخرى) اجـــل سأحاول ان انقذكم .. وأفر معكم انـي افضل الانضمام الى حركتكم انني أنا أيضاً عربي ! (يغادر الشباك ويسير في الممشى للحراسة ثم يعود) استعدوا لاشارة حاسمة مني

عمر — عافاك الله ! ان العربي الأصيل لا يمكن أن يخون أخاه !

نجيب — ولكن هذا الحارس اللعين (يشير الى الزنزانة المجاورة) هو الذي يخيفني على أي حال سأنتظر الفرصة المناسبة ، وارجو ان تكون قريبة (يشير لهم فجأة ان يرتدوا الى خلف) أسمع وقع أقدام (يختفي وراء الشباك)

(يقترب وقع الاقدام يسمع صوت صرير سلاسل خلف الباب لحظات يرهفون فيها اسماعهم ، يفتح الباب . يدفع الى الداخل جسم رجل ويغلق الباب على اثر)

عمر وعبد الغني (يصيحون معاً مذعورين) سعيد !

سعيد (ببسمة حزينة) تحية ايها الأبطال !

عبد الغني — ولكن كيف قبضوا عليك يا سعيد ؟

(يعانق كلاً منهم)

سعيد — كتبت بالأمس مقالاً عنكم بعنوان «الأبطال» !

عمر — ولكن لماذا يا سعيد ؟ كنا نفضل ان يبقى منا واحد خارج هذه الجدران

سعيد — ولماذا يا عمر ؟ سنكون معاً في كل مكان (صمت) ثم انهم حسناً فعلوا [illegible] ما عساي افعل بعد ان عطلوا الصحيفة

عبد الغني — وماذا لديك من اخ[illegible]

سعيد — ان هناك تطورات هامة [illegible] فيصل من شرك كان السفاح ينصبه له [illegible] دمشق الى مكة

عمر — هذه بشرى عظيمة يجب ان نتوقع شيئاً خطيراً بعدها

سعيد — ولقد ارسل الأمير فيصل [illegible] جمال باشا بأنه لن يستطيع ان يكبح جماح الشعب ما دامت الاعتقالات مستمرة والاضطهاد قائماً

عبد الغني — لا شك في ان رسولنا قد وصل اليه

سعيد — لقد بلغتنا الأنباء بأن البلاد العربية كلها في غليان

عمر — أجل ! آن لها ان تنفجر !

سعيد — وعلمنا امس ان بعض الشباب المناضلين قد

التجأوا الى الجبال بأسلحتهم ، وبدأوا تنظيم
انفسهم في انتظار الاشارة من القيادة العربية.

عمر — لن يكون اعتقالنا بلا جدوى، ايها الأخوان

عبد الغني — واولئك الذين استشهدوا لن تذهب
تضحيتهم سدى

جرجي — لكن كيف قبضوا عليك يا سعيد؟ لقد سرّنا
أنك لم تكن معنا في المقر السري للحزب حين
داهمونا

سعيد — اقتحموا بيتي بعد صدور الجريدة صباح اليوم..
(لحظة صمت) لم يسمحوا لي حتى ان اقبل
اولادي (يبدو عليه التأثر)

عمر — وزوجتك ؟

سعيد — لم أكن أتصور ان تملك مثل هذه الشجاعة
ورباطة الجأش ، في اول الأمر على الأقل
(يصمت) لقد سألتهم جثتي لتأخذونه
أليس كذلك ؟ خذوه .. ولكنكم لن تقتلوا
الروح التي بثها قلمي في نفوس الشعب (يبدو
عليه التأثر من جديد) غير انها حين التفتت
الي ونظرت في عيني انفجرت في البكاء ،
فانتزعني الوحوش من بين ذراعيها انتزاعاً ..

(يعض على شفته السفلى حتى لا يبكـــي)
دعونا من ذلك الآن هل بلغكم ان بعض
رفاقنا المعتقلين قد نقلوا اليوم الى دمشق ؟

عبد الغني – كلا

عمر – ومن هم ؟

سعيد – الزهراوي والمؤيد وسلوم والانكليزي وسواهم..

عبد الغني (يخفض رأسه) – اني اتوجس شراً أيها الاخوان

عمر (بعد فترة) – سأتحدث الى الحارس (ينهض الى الشباك ويومىء بيده يقترب الحارس) – هل بلغك شيء عنا ؟

نجيب (يتردد) – انهم على أي حال .. لا يضمرون لكم الخير

عمر – وما الذي تنوي ان تفعله انت ؟

نجيب – ما زلت أنتظر الفرصة [illegible] ولكن هذا الحارس اللعين [illegible] يتفهم قصدي على أي حال [illegible] دائماً على استعداد (يبتعد)

جرجي – لا احسب ان تهديد الأمير فيصل سيلقى اذناً صاغية لدى السفاح

عمر – بل لعل سفره الى الحجاز سيثير الطاغيـــة ، فيبحث عن وسيلة للانتقام

عبد الغني – مهما يكن من امر ،فلا بد ان يحاكمونا.. وهذا سيقتضي بضعة ايام على الأقل

جرجي– أليس من المعقول ألا يحاكمونا كما فعلوا برفاقنا منذ تسعة اشهر ؟

عبد الغني – انكم تذكرون الهياج العام الذي عصف بالبلاد بعد اعدامهم بلا محاكمة !

سعيد – حتى لقد اضطر السفاح الى اعلان محاكمـــة صورية بعد تنفيذ الأحكام

عبد الغني – لا اعتقد أنهم سيفعلون ذلك مرة اخرى..

جرجي– اذن ، يبقى لنا أمل بالانقاذ حتى يحين موعد المحاكمة

عمر – ان هذا الأمل منوط الآن بصديقنا الحارس!

(يطل نجيب مرة اخرى من خلف الشباك)

نجيب (بصوت مرتفع) – سعيد عقل .. ان زوجتك تطلب رؤيتك مسموح لها بخمس دقائق فقط !

(تطل سلمى من وراء الشباك)

سعيد (بلهفة) – سلمى حبيبتي كيف سمحوا لك؟

سلمى – لاقيت الأمرّين حتى حصلتُ على الاذن

سعيد – بربك طمئني هل آذوك أو أهانوك ؟

سعيد – ليطمئن بالك يا سلمى ما دام هؤلاء الرفاق معي (يشير وراءه) فسأكون دائماً في خير ..

سلمى – قل لي يا سعيد ما الذي أستطيع ان أفعله من أجلكم ؟

سعيد – لا يا سلمى .. لا تهتمّي بنا بل وجّهي عنايتك كلهـا للاولاد (يصمت لحظة) كيف حالهم جميعاً

سلمى – كلهم بخير ولكن انت

عمر (مقترباً من الشباك) – اسمح لي يا سعيد ان اقول لها كلمة (يتوجه اليها) جدي وسيلة للتحدث الى الحـارس ، انه من انصارنا حاولي ان تدبري معه الخطة (ينسحب الى داخل الزنزانة حيث تجمع رفاقه في زاوية).

سلمى – هذا امر هين .. ولكن قل لي يا سعيد (تنهار فجأة باكية)

سعيد (مادّاً يده عبر الشباك ملامساً كتفها)لا يا سلمى! انني محاجة الى ان تشجعيني لا ان تثبطيني . (يغمض عينيه) .

سلمـى (تتناول كفه وتقبّل باطنها)– انت على حق

يا حبيبي ، اغفر لي ضعفي ، سأحاول ان
ارتفع الى مستوى الاحداث التي تواجهها يا
سعيد (تكفكف دمعها بمنديل)

سعيد — كنتِ رائعة حين قدموا لاعتقالي

سلمى — سأحاول ان ازورك كل يوم (تلتفت خلفها
بحزم) والآن أود ان اتحدث الى الحارس
(تهم بالانصراف — يمسكها سعيد عبر الشباك
من ذراعها)

سعيد — لكن قبل ان تنصرفي .. هل نسيت العهد الذي
بيننا

(تبتسم سلمى وهي ترنو اليه ، ولكنها تشعر بأن الدمع يطفر الى عينها ، فتنفتل عنه ، وتلتقي بنجيب ويأخذان في حديث هامس)

عبد الغني (متأثراً) — لن يكون القدر من القسوة بحيث يفرق بينكما يا سعيد ..

سعيد — ان لدي الآن شعوراً داخلياً ايها الاخوان

عمر — أي شعور يا سعيد؟

سعيد — لن أرى بسمة سلمى مرة اخرى (ينهار)
ولن أرى بعدُ اولادي

عبد الغني — لا لا إنك متشائم يا سعيد

جرجي — انك تبالغ يا عزيزي

(يصمت الجميع ، وتغشى وجوههم غمامة من كآبة)

عمر — ان ما يقتلني الآن شعوري بأني اعجز انسان
في الدنيا اعجز من ان افتح هذا الباب
مثلاً

عبد الغني — وأنا يا عمر يمزقني أني لا استطيع الا
ان انتظر بلا أمل ان يهبط الليل ، ثم ان
يطلع الصباح وان يهبط الليل ، ثم يطلع
الصباح وان يهبط الليل مرة اخرى أي
فراغ هذا الذي قذفونا فيه !

جرجي — لو كان هذا الليل ليل الظلم ينقضي ليشرق
فجر الحرية لانتظرناه وشيعناه بكل رضى ،
حتى ولو كنا واثقين من اننا سنكون جثثاً
عند الصباح !

سعيد — ما اشد ما احتاج الآن الى قلمي ايها الرفاق ..
لقد نزعوه مني وحطموه [illegible]

(يطل الحارس وراء الشباك وفي عينيه الحزم والقوة)

نجيب (هامساً) لقد ذهبت السيدة سلمى [illegible] وقد
اتفقت معها على هذه الليلة (يلتفت الى
يساره) ان هذا الحارس اللعين (يبدو الذعر

في نظراته) يخيل إلي انه قد ادرك كل شيء

(يغيب وراء الشباك ، بعد لحظات تسمع ضجة وصخب وتنازع وصراخ ، ثم تنبعث عبارة « الحارس نجيب ، الخائن ، هرب نجيب ، كان يتآمر لاخراج المعتقلين ، لقد هرب ، اقبضوا عليه » — المعتقلون الأربعة يتجمعون عند الشباك مذعورين ، ثم تبدأ الضجة تدريجياً بعد قليل ، يبرز وراء الشباك وجه حارس آخر ينبعث من عيونه الشرر يتراجع المعتقلون الى الداخل يظل وجه الحارس المرعب فترة وراء الشباك ، ثم يغيب يسقط الليل رويداً رويداً حتى يعم الظلام الزنزانة)

صوت عبد الغني (منبعثاً من الظلام) — ترى هل نشهد طلوع فجر جديد ؟

(دق طبول صاخبة . يغيب المشهد تخفوتها تدريجياً).

الفصل الثالث

مغارة في جبل عند باب المغارة يجلس نجيب فوق صخرة ، بلباسه العسكري ، مطرقاً الى الأرض تصل سلمى بعد قليل تحمل في صرة كبيرة طعاماً ومؤونة ، ينهض نجيب لدى وصولها ، يتناول منها الصرة ويدخل

الى المغارة ، نجلس على صخرة قريبة ، يعود نجيب من المغارة فيجلس حيث كان ، لحظة صمت

نجيب – يبدو ان الاهلين كانوا اليوم أكثر كرماً من الأمس

سلمى – ثق ان كثيرين منهم يؤثرون المناضلين على انفسهم وأولادهم

نجيب – ولكن يجب ان نعترف انك لو لم تكوني زوجة الشهيد (لا يتم)

سلمى – صحيح حين يعرف أحدهم ذلك ، تراه يبذل كل ما يستطيع (تصمت) زرت اليوم بيتاً لم أجد فيه إلا شيخاً مسناً محني الظهر وحين عرفني ، وعرف مهمتي ، أعطاني هذه الصرة الصغيرة التي كان يربطها في صدره وقال لي هذا كل ما أملك ، ادخرته للأيام السود ، ولا اعتقد انه سيأتي يوم أشد سواداً من هذا الذي يعدم فيه شاب قوي مناضل كسعيد عقل ، ويبقى على قيد الحياة شيخ متهدم مثلي لا جدوى منه (تحول نظرها الى المغارة) ألبس فيها أحد ؟

نجيب – لم يعد أحد بعد (يصمت ، ثم يبدو متململاً على مقعده) كأنني هنا ما أزال في السجن
اني أريد ان أقوم بشيء آخر غير الحراسة !
سلمى – لا تتعجل الامور،لا شك في أنهم سيشركونك في العمل حين يقررون البدء به
نجيب – كنت أتمنى لو بقيت في السجن ، ولم أهرب، كانوا سيعدمونني دون ريب ، ولكـن
هل أنا خير منهم هل أنا خير من عبد الغني وعمر وجرجي ؟ هل أنا خير من سعيد .
(يخفي وجهه بيديه ويجهش بالبكاء)
سلمى (تنهض بهدوء وتضع يدها على كتفه) لقد قاموا بواجبهم يا نجيب (تترقرق الدموع في عينيها) وما زال أمامنا ان نقوم نحن بواجبنا..
نجيب – لم أكن أتوقع قط ان يسوقوهم في تلك الليلة بالذات الى بيروت ، لو كنت عرفت ذلك، لحاولت إخراجهم مهما كلف الأمر ... ولكن ذلك الحارس المجرم ...
سلمى – لا تتحسّر يا نجيب على ما كان بوسعنا ان نعمله ، لننظر ماذا نستطيع ان نعمل الآن
نجيب – كيف حال الأولاد ؟

سلمى – ألف الأكبر فرقة من صبية الحي وهو يقول
إنه يريد ان يهاجم بها المخفر (تبتسم)

نجيب – انها الروح التي تشيع في كل مكـــان
جميع الرجال يتنادون لتأليف الفرق الفدائيـة
وتنظيم المقاومة وكل يوم ينضم الى فرقتنا
شبان آخرون (فترة) هـل قابلت في المدينة
احداً اليوم ؟

سلمى – في الصباح، زارتني امه مرة اخرى (تمالك
نفسها حتى لا تبكي) ان صورته تكاد تبلى
بين كفيها من اللمس والدموع

نجيب – يا للعجوز المسكينة

سلمى – وبينما كنت احاول ان أهدئها جـــاء الطبيـب
الذي حضر المشهد..

نجيب (بلهفة) ماذا روى لكم ؟

سلمى – قال إن سعيد التفت الى الواقفين حوله : وهو
على منصة المشنقة وقال:

« أسأل ربي ان يكون دمي الذي يراق الآن حتى
آخر نقطـــة سبباً في المستقبل لحرية بلادي وشرفاً لعائلتي
وأولادي ! (يتهدج صوتها)

نجيب (مهتز الجسم) – وبعد ذلك ؟

سلمى — روى الطبيب ان سعيد التفت اليه قائلاً « رجائي اليك وأنت من أهل بلادي ان تهوي بكل قوتك عليّ ، لأن خفة جسمي تمنع انقطاع حبل حياتي بسرعة ! » (فترة) وقال الطبيب: إنه وقف مرات عديدة امام المشانق، ولكن هذه كانت المرة الاولى التي بكى فيها!

نجيب — هل يتاح لنا أن نموت ميتة هؤلاء الأبطال ؟ (يصمت) لقد روى لي طاهي السجن أنهم حين أبلغوا قرار الاعدام ، انطلقوا جميعاً ينشدون نشيد عمر حمد

نحن أبناء العلى شادوا مجداً وعلا

وظلوا يرددون هذا النشيد حتى بلغوا ساحة البرج في بيروت وقد رفس جرجي حداد وباترو باولي الكرسي تحت اقدامهما وهما يبتسمان ..

سلمى — وباقي الرفاق ؟

نجيب — طلب عبد الغني العريسي ان يعدم مع الأمير عارف الشهابي قائلاً « اني قضيت معه الحياة ولست احب إن افترق عنه في الممات ! » ثم التفت الى رجال البوليس وقال لهم « بلغوا للسفاح ان الملتقى قريب، وان جاجمنا ستكون

أساساً لاستقلال بلادنا »

سلمى ـ وعمر حمد ، هل رووا عنه شيئاً ؟

نجيب ـ قال عمر وهو على المنصة « انني أموت فداء العرب ، خسفت يا هلال ، وشلت يمينك أيها السفاح ! (فترة) وهل بلغك ما قاله توفيق البساط حين ساقوه الى ساحة الاعدام ، فرأى على اعواد المشانق احد عشر من رفاقه ؟

سلمى ـ أي مشهد رهيب هذا !

نجيب ـ لقد صاح توفيق : « مرحباً بأرجوحة الشرف ! مرحباً بأرجوحة الأبطال ! مرحباً بالعمد التي تستند اليها الشعوب في استقلالها ! مرحباً بالموت في سبيل حرية الوطن ! »

سلمى (بعد لحظة صمت) ـ [illegible] تساءلت يا نجيب ساعة كيف تولد البطولة في صدور الرجال ؟

نجيب ـ ان البطولة يا سيدتي شعلة يلهبها الإله في صدور من يرفعون الأوطان الى ذروة انتصاراتها الرائعة .. انها سلك يكهرب النفوس ويفولذ الأرواح (فترة) هل يقدر لنا ان تنفذ يوماً الى صدورنا أشعة من هذه الشعلة المقدسة ؟

سلمى ـ ان البطولة لم تكن لتعوز روحك يا نجيب حين

عزمت على انقاذ الأبطال

نجيب – ولكن يدي ما تزال مشلولة (تثور أعصابه) إنها تريد ان تعمل (يكور قبضته) ان تنتقم للاحرار، ان تثأر لجميع اولئك الذين حرستُهم فسيقوا الى المشانق

(يسمع فجأة طلق ناري ، تظل قبضة نجيب مرتفعة الى السماء ، وتكسو وجهه علامات لهفة وابتهاج ، تُسمع طلقات نارية كثيرة)

سلمى – ما هذا يا نجيب ؟

نجيب (بصرخة) – انها رصاصة الثورة يا سلمى انها رصاصة الشريف حسين أطلقها في مكة، وتتجاوب بها الآن سماوات العرب جميعاً لقد أعلنت الثورة يا سلمى !. (يمسكها من كتفيها ويهزها) أتعلمين معنى الثورة؟ سننتقم يا سلمى ! سيبدأ العرب زحفهم ! (يدخل مسرعاً الى المغارة ثم يخرج وبيده بندقيته مرفوعة الى السماء) لقد أطلق سراح أيدينا يا سلمى سنهدم الظلم والظالمين ، سنحرر الوطن من رجس الاستعمار التركي ، وداعاً يا سلمى (يمد يده فيصافحها) بل الى اللقاء

في وقت قريب يوم تزحف فرقتنا لتحرر
هذه الأرض من السفاح ومن الطغيان العثماني..
الى اللقاء يا سلمى ... الى اللقاء يا رفيقة
سعيد ! قبلي الأولاد عني ، وحيي الى قائد
الفرقة الصغير

(ينحدر هابطاً التلة وهو يطلق نار بندقيته حتى يختفي.
تبقى سلمى واقفة عند رأس المنحدر ، وهي تنظر الى
الأفق البعيد ، والريح تطاير شعرها أمام عينيها
صور مختلفة تبدو على الشاشة صورة سعيد ورفاقه وهم
ينشدون نشيد عمر حمد « نحن أبناء العلى » متكاتفين —
صورة مشانق منصوبة — هتافات بحياة الوطن وحياة العرب —
صورة سعيد وهو يكتب — صورته وهو يدعوها الى
الابتسام — تبتسم سلمى والدموع في عينيها،ترتعش شفتاها
كأنما تبكي ، تبتعد صورتها تدريجياً وهي ما تزال تبتسم
ولكن الدموع تنحدر من عينيها ، يغيب المشهد على هذه
الصورة ، يسمع صوت بعيد مضخم كأنه صوت
نجيب يملأ الفضاء)

صوت نجيب — أجل ماتوا ولكنهم ماتوا ليحيا
الوطن ، ولتحيا العروبة

(موسيقى تصويرية تتراوح بين الصخب والرقة)

العصفور القطني الأصفر

سيبقى معي نصف ليرة ، من [illegible] انها الآن ثلاث ليرات ونصف لقد طرح [illegible] البركة اليوم صحيح اني عملت اكثر من المعتاد ، ولكن الغلة اليوم طيبة الحمد لله أعطانا على قدر ما نستحق . سأصلي له هذا المساء ، بعد صلاة العشاء ، ركعتين للشكر . ثلاث ليرات ونصف لا بأس بها ليرة منها للحم ، ونصف للباذنجان ، وأربعون قرشاً للخبز وعشرون للارز ، ونصف ليرة للسمن أتراني أخطأت العد ؟ ليرة ونصف ، وأربعون ، وستون ، ونصف ... لا أعلم أخطيء ، سيبقى النصف اذن وسيفرح اليوم زياد . أبقاه الله لي . سيتحقق حلمه الذي انقضت ايام ستة وانا أهدهده له هذا المساء يا زياد غداً يا حبيبي بعد الظهر يا عيوني . وحياتك

صباح الغد يا زياد حتى كدت أخجل منه ، وأتمنى ان أجده نائماً حين أعود ، على شدة شوقي اليه اما هذا المساء ، فلن أكون كاذباً بعد ذلك العصفور القطني الأصفر ، سيلمسه زياد أخيراً بأصابعه ، هذا المساء ، وسيملس ظهره الناعم براحة يده الصغيرة ، وسيضمه الى صدره سلمك الله لي . سامحني يا حبيبي كل يوم وأنا أعدك بشرائه هل أنسى وقفتك أمام تلك الواجهة ، تنظر بعين كسيرة الى العصفور القطني الأصفر ، وتهم بأن تمد يدك اليه ؟ وحين رفعتك وقبلتك ، وعدتك ان أشتريه لك في اليوم التالي ؟ وجاءت ايام عديدة تالية . ولكن ما حيلتي يا زياد ؟ كان الشغل هذا الأسبوع قليلاً وأنت تعرف — أو لا تعرف — كم أكسب من هذا الشغل . ولم أحمل حوائج كثيرة ، حتى أني أحس ظهري مرتاحاً ولا أشكو ذلك الوجع في ظهري . الناس يزدادون بخلاً يا زياد بعضهم يزدادون بخلاً فيحملون هم أمتعتهم وحاجاتهم ، بدلاً من أن ينادوا العتالة ، وبعضهم يفضلون سيارات الأجرة لتنقل لهم حاجاتهم ان السيارة تنافسنا على رزقنا يا زياد تصور أن هذا سيدوم ، فاذا نفعل بعد ذلك يا بني ؟ انني لا أحسن عملاً آخر . ولن أجعلك أنت تمتهن هذه المهنة ستكون أفضل مني يجب ان

يكون الأبناء أفضل من الآباء ابن العتال عتـــال ؟ لن أرضى بذلك ! ستكون أفضل مني يا زياد ستذهب الى المدرسة في العام القادم . كنت أتمنى ان تذهب الى المدرسة هذا العام ، ولكنهم قالوا لي انك ما تزال صغيراً . واذا شئت الحق يا زياد   ارتحت قليلاً لهذا الجواب لأني كنت أتساءل أين أجد لك أقساط المدرسة ولكني منذ الآن سأعمل كثيراً لأوفر بعض المال، ولأدفع لك الأقساط في العام القادم ولعله بعد عام او عامـين ، ستخفض الأقساط ، او تلغى تماماً من يدري ؟ ان رفاقي العتالة يتذمرون دائماً حين يتحدثون عن المدرسة،وعن أولادهم وكلهم لهم أولاد مثلك يا زياد والعجيب انهـم كلهم يريدون ان يعلموا أولادهم في المدارس ، وفي المـدارس المحترمة أيضاً ولكن الأقساط غالية كما يقولون. وقد ذكر لنا رئيسنا منذ ايام ان الأقساط في بلادنا هذا هي أغلى الأقساط في العالم كله ، وأن التعليم هنا تجارة وكسب،وتساءل لماذا لا تفرض الحكومة التعليم الالزامي ، وان يكون بالمجان يا ليت ، يا زياد ، ولكن لنفرض ان ذلك لم يحدث ؟ سأعمل ليل نهار يا زياد لتوفير هذه الأقساط ، وسأدعو الله ان يصلح هذه الحكومة الفاسدة !

عجباً أهذا دكان السمان ؟ لكأنه ينتصب لساعته ،

ولم يكن موجوداً من قبل أم انني شردت عنه وأضعته؟

حسناً هات كيلو من الارز يا حاج محمود. ونصف ليرة سمنة وكيلو خبزاً حسناً بقي الباذنجان. سأشتريه من دكان موسى. أما اللحم فمن ملحمة العائلات انقضت ثلاثة أيام لم نأكل فيها لحماً ثم فرجها الله لا بأس اننا لن نموت جوعاً وسليمة امرأة صالحة، لا تطلب شيئاً، ولا تشكو شيئاً اعطاها الله العافية لا هم لها إلا زياد والا تنظيف الغرفة وترتيبها. وكم تبدو غرفتنا نظيفة كل مساء انني أشعر فيها براحة عجيبة كأنما أعود اليها من سفر بعيد ولكني لن أقيم فيها طويلاً صحيح انها نظيفة، ولكنها صغيرة جداً ولن تليق بزيادة حين يكبر لا شك في أن الاحوال ستتحسن في المستقبل، ويتضاعف دخلي ومن يدري؟ فقد اهجر العتالة الى مهنة أخرى أكثر ربحاً. انني لا افهم في الحقيقة لماذا لا تقوم عندنا المصانع الكبيرة، كما تقوم في جميع البلاد ان زندي قويان وهما جديران تصنع قوي، بآلة أقف خلفها باعتزاز وفخر ان الناس يتعجبون حين أرفع هذا السل، مهما كان ممتلئاً ولهذا أكاد أشعر، صدقني يا زياد، اني استحق أكثر من هذا العمل لا، استغفر الله، انا لا أحس بالذل منه،

ولكني أريد عملاً اكبر فهل هناك [illegible] إذا أردت أن احسن وضعي ؟ لنتركها للزمن [illegible] .

والآن ، هات يا عم سعيد [illegible] من الموزات لا بل من لحم البقر [illegible] بعض العظم نظفها قليلاً يا عم سعيد [illegible] بالخير ان شاء الله . سلمت يداك .

احس اليوم بجوع غريب ، ولكن [illegible]ـان الله ، كيف يذهب جوعي سريعاً بمجرد [illegible] بالاكل ، ولا آخذ بضع لقمات الا واحس الشبع ، حتى [illegible] لاستغرب كيف كنت جائعاً الى ذلك الحد . [illegible] الباذنجان الذي أحمله ، لذيذ ، ومن حسن الحظ انه سريع النضج . سأقترح على ام زياد ان تقلي منه حبة أو حبتين ، ويبقى الباقي لغداء الغد مع اللحم وبعد ان اتنشف ببضع حبات من الزيتون آخذ زياد في حضني ، واتفرج عليه كيف يداعب العصفور القطني الأصفر يلاعبه قليلاً ثم يضعه امام رأسه في الفراش ، وينام والبسمة على شفتيه

انتظرني يا زياد فبعد عشر دقائق على الأكثر ، سيكون العصفور امامك ، فتحمله بيدك الصغيرة الحلوة ، واحملك بين ذراعي ، واقبلك ، وأشمك ، واشدك الى صدري

انتظرني يا زياد ، انتظرني

ولكن ما هذا ؟ لماذا يضرب هذا اللعين ذلك الصبي ؟ اسمع انت ، لماذا تضربه ؟ انه أخوك ؟ جريمتك اذن مزدوجة ! الا تسمع بكاءه وتوجعه ؟ الا ترى حبات العلكة تسقط من صندوقه الكرتوني الصغير ، فيلمها واحدة واحدة ، ولا تنحني لمساعدته ايها الشقي ؟ من علّمك هذه القسوة ؟ تقول انه يبكي لانه لم يبع كل محتويات صندوقه؟ وهل تضربه من أجل ذلك ؟ انه سيبيعها غداً تقول ان اباكما سيضربكما لهذا ؟ وقد يطرده فينام على العتبة؟ ولكن أي أب هذا ؟ انه مريض ؟ يا للجبار ذي العاهة اذن ! ولكن هل يكفي ان يكون مريضاً ليفرض على طفله هذا كله ؟ تقول انك بعت كل حباتك ، وان اخاك لم يبعها كلها؟ ساعده اذن ليبيع أيكفي ان يكون مريضاً ليفرض على طفله هذا كله ؟ تقول إنه سيشفق عليك دون شك ، فهو صغير ، ولا يملك القدرة مثلك ، ولا القوة على الجري تقول انني لا اعرف اباكما ؟ انا طبعاً لا أعرفه ، ولكني أعرف كل أب تؤكد انه قاس جداً ؟ ولكن هذا غير ممكن تقسم بالله انه سيضرب اخاك الصغير ضرباً شديداً ؟ حسناً ، ولكن انت ، انت لماذا تضربه؟ لأنه يريد ان يبيعك انت باقي حباته ، فيكون الضرب من نصيبك لا نصيبه ؟ كفى ، كفى هذا ادعاء سخيف.

يبكي لانه لم يبع كل حياته ، هذا مفهوم فدعه اذن .
تعال انت ، تعال ايها الصغير امسح دموعك ، وكفّ قليلاً عن البكاء كم عمرك يا بني ؟ اربع سنوات ؟ انك اذن بعمر ابني زياد ليحفظه الله وليحفظك ! كم عدد الحبّات التي بقيت معك ؟ تسع حبات ؟ وكم ثمنها ؟ تسعة فرنكات خمسة وأربعون قرشاً نعم خمسة وأربعون قرشاً تقول خمسة واربعون قرشاً ولكن ... العصفور القطني الأصفر ؟ العصفور الصغير ؟ القروش الخمسة التي تبقى لي تكفي . ما العمل اذن ؟ يا إلهي ! ساعدني على حل المشكلة . عدتَ الى البكاء ايها الصغير ؟ ارفع رأسك وانظر إلي . عجباً كيف لم أتنبّه الى ذلك . انك تشبه زياد . اقسم بالله انك تشبهه وعمرك مثل عمره تماماً انا لا أضربه . انا لست مريضاً ولله الحمد لست مريضاً ما ضربته اطلاقاً كفى ، كفى لا تعد للبكاء . انك تطلب مني ان اتركك ؟ ولكن قف قليلاً يا بني . انني لا اريد ان يضربك أبوك . انه لو ضربك ، فكأنني اضرب زياد تصوّر انني اضرب زياد ! لتقطع يدي قبل ذلك ! تعال ، خذ هـذه نصف ليرة هذه نصف الليرة اشتريت منك الحبات الباقية هاتها لا تدهش لهذا يا

بني هاتها والقروش الخمسة الباقية ؟ لا دعها لك .
خذها أيضاً انها هدية هدية لك من زياد نعم
ابتسم هكذا امسك يد اخيك. وانت لا تضربه بعد الآن .
لا تضربه ابداً انه صغير ، وجميل ، ويشبه ابني زياد.
سمعت ؟ لا تضربه ابداً والآن ، سلّما لي على ابيكما
انني لا اعرفه ، ولكن قولا له مع ذلك ان ابا زياد يسلم
عليك مع السلامة مع السلامة

ولكن عجباً ! لماذا يثقل السل على ظهري ؟ مع ان
ما فيه غير ثقيل ؟ ماذا ؟ لكأن بؤس العالم كله يوضع
فيه ، كأن يداً خفية تجمع بؤس الدنيا لتضعه فيه،فيثقل،
ويثقل ، ويثقل انني لا أطيق بعدُ ان أحمله ولكن
ليس البؤس وحده بل الظلم ايضاً البؤس والظلم
لا بد لي من ان اجلس لحظات على هذه العتبة حتى
أرتاح قليلاً حتى أقوى من جديد على حمل السل حتى
يخف السل لا بأس ارتحت قليلاً فلأنهض ، حتى
لا أتأخر على البيت حتى أستطيع رؤية زياد قبل ان
ينام

اعطاكِ الله العافية يا أم زياد خذي هذا بعض
الطعام لقد سترها الله علينا اليوم اسمعي هذه القصة
يا ام زياد ولكن أين زياد ؟ انني لا أسمع صوته

تقولين انه نائم ؟ ولماذا نام باكراً ؟ لقد انتظرني طويلاً ؟ ولم يكفّ عن السؤال عن العصفور الأصفر ؟ ثم تعب ونام ؟

لا بأس يا أم زياد . غداً غداً ، سأشتري له العصفور الأصفر من كل بد سأشتريه بأجرة اول حملة أحملها من كل بد

أية نظافة في هذه الغرفة يا أم زياد ! سلمت يداك ليس عندي مال ،يا ام زياد ولكنك انت مالي وثروتي. انت وزياد

هاتي نأكل لقمة . لأني أحس بالنعاس اليوم يا ام زياد. لا أدري لماذا اريد ان أنام تصبحين على خير انت

ولكن يا إلهي ماذا أرى ؟ حمداً لك انه كان مناماً! لقد حلمت بأن زياد يتحول الى عصفور ، عصفور صغير أصفر ، ويروح يدوّم في هذه الغرفة ، ثم يخرج من النافذة ، ويطير بعيداً ، بعيداً

أبقاك الله لي يا زياد . ولتظل هذه البسمة على شفتيك، في يقظتك ونومك كأنها جناح ملاك. يرف عليك . تعال أقبلك في جبينك ، تعال زياد قبل ان أعود الى النوم .

ولكن النوم يقاومني وأشعر ان عيني مفتوحتان على سعتها ، تحدقان في الليل في هذا الليل الكثيف . انني أحسه ثقيلاً ، كما أحسست السل على ظهري، منذ ساعات. اريده ان ينقضي سريعاً ، وان يخف فمتى تطلع ايهـا الصباح ؟

التفاهة

بلا نهاية ، ستبقى قصتك .

وستقدمها للاذاعة على هذا النحو [illegible] تماماً كقصتك معها ، هي ناهدة ، التي غابت منذ لحظات ، تمسك بيدي طفليها غابت من غير أن تمنحك بسمة أخيرة من غير أن تلتفت اليك . ومع ذلك ، فقد كان حضورها يملأ المكان كله ، المقهى [illegible] لم يكن ثمة حضور آخر ، وحتى حضورك أنت أيضاً كان يعاني الغيبوبة . فلما أن أمحت ناهدة ، استرد الناس حولك حضورهم ، واستردت الأشياء ؛ فهذا الكرسي الذي أنت جالس عليه ، وهذه الطاولة التي تسند اليها يدك ، بل وهذا القلم في يدك ، كل ذلك عام على السطح ، كأنما كانت قد ابتلعته هوة وأحسست احساساً أليماً بأنك باق وحدك ، وأن هذا القلم في يدك ، معلق في

الهواء ، يستعصي عليه أن يسطر الخاتمة؛وأن هذه الصفحة البيضاء ستظل ، تحدياً لك بيضاء .

وأغمض عينيه لحظة ، آملاً أن يجد تحت جفنيه من جديد طيفها وهي تغيب ، موليةً اياه ظهرها ، ممسكة بيد طفلها عن يسارها ، ويد طفلتها عن يمينها وآلمه أن تكون العين أعجز من آلة التصوير ، فلا تملك القدرة على أن تثبت الصورة في الحدقة

وظل لحظات يحاول أن يستحضر ملامح الوجه الذي غاب ، فأعجزه ذلك ؛ ولكن الصوت ، صوتها عاد يملأ سمعه انه ليجد الآن نفسه ، وهو يرفع رأسه عن أوراقه ، اذ يسمع صوتاً ينادي

ــ تعال يا ماهر تعال

ووعى سريعاً أنه صوتها ينبعث من أعماق السنين ، نافضاً عنه رماد الزمن ، محدثاً في سمعه وكيانه رجة خفيفة ، أشبه بالنفضة التي تحدثها الكهرباء حين تمس إصبعك صوت حسب انه قد تلاشى الى الأبد ، عبر الأعوام والأحداث ولكنه ينبثق الآن نابضاً حياً، كعهده به منذ سمعه للمرة الأولى ، وارتعش له

وذكر أنه أحس نفسه يتململ فجأة في مقعده ، ثم ينهض على غير ما ارادة منه ، كأن قوة خفية رفعته من كتفيه وكان ذلك قبل أن يرى وجهها ؛ لأنه حين رآه ، عاد يجلس ، على غير ارادة منه كذلك ، كأن القوة الخفية نفسها شدته الى الأرض ، أو كأن ساقيه كفتا عن أن تحملاه وعجب أن يحس جسمه ، لأول مرة ، أشبه بالآلة ، تُقاد وتحرك من الخارج ، بأصابع من مغنطيس

وعلى بُعدها النسبي عنه ، رأى ذاك الذي كان دليله اليها ذاك الاحمرار يصبغ وجنتيها ،.. كلما كان نظره ونظرها يلتقيان وذلك الاحمرار ، كان أميز ملامح شخصيتها انها اذن ناهدة ، لأن هذه الحمرة الشفقية هي حمرتها وحدها ، دون سواها ...

وإذن ، فقد رأته كما رآها . ولقد [illegible] فمها مفتوحاً لحظات ، وكلمة « ماهر » معلقة [illegible] تزال ثم افترت الشفتان عن ابتسامة [illegible] تعرفها ، مترددة قلقة . وخالجه شعور غريب بأن [illegible] هناك كان في غير محله ، وأن يداً مؤذية قد [illegible] هذا المقهى

لا ريب في ان هذه المفاجأة قد أحرجتها ، ومن هنا نبعت تلك الحمرة على وجنتيها . وأصبح على يقين انها ما كانت

تقصد هذا المقهى لو خامرها ظلّ من شك في انها قد تراه هنا وانتهى الى الاحساس بما يشبه الذنب لحضوره في هذا المكان .

ولكنها فاجأته بالدنوّ منه ، والبسمة تشعّ على شفتيها ، وبادرته تقول

— هذا انت ؟

فنهض يمدّ يده الى اليد الناصعة المبسوطة ، وهو يتمتم :

— مرحباً ناهدة

وسمع خفق قلبه إذ نطقت شفتاه باسمها وانبعثت على لسانه مرةً واحدة تلك النكهة التي كان يتذوقها كلما نطق باسمها وتساءل من أين جاءته هذه البساطة وتلك التلقائية في تسميتها ، رغم الحواجز والزمن والحاضر والواقع . وسرى اليه من أصابعها ، وهي في كفه ، دفء راعش ، ثم سمع صوته يتمتم

— الا تتفضلين بالجلوس ؟

قالت في هدوء

— لا انني اريد ان ارى أين ذهب ماهر وهدى .

ولم تهمّ بالذهاب ، فشجعه ذلك على ان يقول

— اين تريدينهما ان يذهبا ؟ لا بدّ انهما يلعبان في الباحة

قالت في تردّد

– ومع ذلك

ولكنه رآهـا تستند الى كرسي موضوع بإزاء طاولة مجاورة ، ملقية بجسمها على ظهره وبلمحة واحـدة ، استوعب تفاصيل هذا الجسد كله . انه ما يزال ممشوقاً ، وان كان قـد امتلأ قليلاً ونظر الى وجهها الباسم في وثوق ، ثم فاجأ نفسه وهو يقول لها

– انك ما تزالين على نضارتك !

قالت ، وقد طفر الى وجهها الاحمرار

– صحيح ؟

فقال سريعاً ، كأنما كان يخشى ان ينسى فكرته

– وما يزال وجهك يحمر لأقل كلمة !

فتحوّلت بسمتها الى ضحكة صغيرة ، طفولية ، قبل ان تغيب الحمرة رويداً رويداً ، وقبل ان تقول له

– وأنت ، ما تزال تكتب القصص ؟

قال ضاحكاً

– وماذا نفعل غير ذلك ؟

وسرعان ما تساءل أكان في سؤالها سخرية ، ام انه مجرد سؤال ؟

ثم مال الى الاعتقاد بأنه لم يكن سؤالاً ساذجاً على أي

حال؛ لكأنها كانت تخفي خلفه علامة استفهام : وحياتك، فيما وراء القصص ؟

وبدأ فعلاً يفكّر في جواب هذا السؤال الذي ظن انه يخطر في ذهنها ، ولكن طفلاً وصل في تلك اللحظة ، وهو يعدو ، فتشبث بيد ناهدة ، وهو يقول

— ماما ، ماما ، اريد كوكاكولا

فانحنت عليه تقبله في شعره ، ثم اومأت الى خادم المقهى ،وطلبت منه ان يحمل الى طاولتها زجاجتي كوكاكولا. وانطلق الطفل يعدو ثانية ، وهو ينادي اخته ليزفّ اليها البشرى

قال

— كم ولداً ؟

قالت

— هذان الاثنان ماهر وهدى

وصمتت لحظة ، ثم سألته السؤال الذي كان ينتظر

— وأنت ؟

وألقى الجواب الذي كان قد أعدّ

— أعلى منك بدرجة واحدة : ثلاثة بنتان وصبي

— والصبي هو الأكبر ؟

— بل هو الأصغر

وصمت وظلّت صامتة وبدأت شفافية الصمت تجرّحه ماذا لديه ليقوله لها بعدُ ، وماذا لديها ؟ لماذا لا ينصرف هو الى أوراقه ، ولماذا لا تنصرف هي الى ولديها ؟ ما شأنه بها ؟

وفجّر شفافية الصمت بلهجة جادة ، يكاد يكون فيها حقد

ـ أتظلين واقفة ؟ اما تعبت ؟

فابتسمت واحمرّت ثم تحركت وهي تقول

ـ يجب ان ارى الولدين

قال وهو يغلق قلمه ، ويشعر بموجة الحقد تنمو في صدره

ـ سيأتيان ليشربا الكوكاكولا ، فلا تقلقي

ثم أضاف فجأة

ـ أم تخافين ان يخطفها أحد ؟

وأومأ بإصبعه الى الكرسي الذي كانت مستندة اليه

ـ إجلسي قليلاً

فاستدارت وجلست وهي تقول بصوت يحمل اليه انها تستعير من لهجته هو نبرته

ـ وما الفائدة ؟ الأفضل ان ...

ولم تتمّ ومد لها يده بعلبة السكاير فاعتذرت

وحين نفث دخان سيكارته قال في نفسه انه دخان شفّاف كهذا الصمت المزعج اللامجدي وأرسل مجّة اخرى ، وهو يتمنى ان يرى الدخان يكثف ويكثف حتى يحجب وجهها عنه ، ويُغرق في التلاشي هذا الحضور المُربك ثم قالها ، عبارته تلك التي فتئت تجول في حلقه ، منذ سمع نبأ زواجها

— لماذا لم تنتظريني ؟

وسرعان ما أدرك انه سؤال فجّ ، وانه ما كان ينبغي له ان يطرحه وأزعجه هذا الإحساس ، فإذا هو يطرح السؤال مرة اخرى ، كأنما لينتقم من نفسه

ونظرت اليه نظرة ساهمة ، ثم أغضت من غير ان تجيب وعاد صوته اليه ، وقد رقّ قليلاً وخلص من شائبة الحقد ، فقال

— لماذا ؟ ألم نتعاهد ؟

قالت وهي تنظر الى أصابعها

— ما جدوى هذا الحديث الآن ؟

فقال في هدوء

— قد تكون الحياة كلها بلا جدوى . ولكن هذا لا يمنع أننا نعيشها

قالت

ــ غير أن من الأفضل أحياناً ان نتناسى اننا نعيشها

وخشي أن يقودهما هذا التجريد الذي بدأه الى زقاق مسدود ، فعاد يطرح سؤاله

ــ ألم نتعاهد ؟

فتمتمت وهي تطوي بين أصابعها منديلاً أزرق وتبسطه :

ــ ما دمت مصراً على السؤال وأنت ألم تكتب لك أختك ؟

ــ ماذا ماذا تقصدين ؟

ــ ألم تخبرك أن هناك من يطلب يدي ؟

وأحس بصفرة ابتسامته على شفتيه، ثم قال شبه خائب :

ــ ظننت أنك أدركت موقفي

قالت وقد اتسعت حدقتاها

ــ وأي موقف هو ؟

وأطفأ عقب سيكارته في المنفضة وقال :

ــ لم أرد أن أضغط على حريتك في الخيار .

وأضاف بعد لحظة من صمت :

ــ كانت تلك فرصة أمامك، و[illegible] أن أغتصب عهدنا اغتصاباً ، فأجعلك تندمين [illegible] تلك الفرصة.

ورآها تبتسم ، ثم تقول

ــ هذه المثالية ! ألا تعتقد أنها ... زائفة ؟

— زائفة ؟

— ألم تكن تعرف منزلتك عندي ؟ إن تلك الحجة كانت تصلح لو كنت تشك في عاطفتي نحوك !

ولم تدعه يقول شيئاً حين استطردت

— كيف كنت تريدني أن أقنعهم جميعاً بأنني أنتظرك، وأنك ستطلب يدي لدى عودتك ، بينما لا تتنازل أنت حتى بأن تعلّق على ما كانت تكتبه لك أختك من أخباري؟

ثم أضافت بلهجة متحدية

— بل ما يدريني انك أنت لم تكن نادماً على العهد الذي تعاهدناه ؟ ما يدريني أنك لم تكن على علاقة بـ ... واحدة منهنّ هناك ؟

فابتسم وقال

— ولكن طبيعة هذه العلاقة ... ستختلف من غير شك!

قالت — ما كان لي أنا أن أتنبأ بذلك ، بل كان عليك أنت أن تقيم الدليل ...

ثم داخلت صوتها سخرية جديدة

— لعلك كنت تهب نفسك كل الحريات ، حتى حرية الانقطاع عن مكاتبتي ثم تطلب مني أن ألتزم بكلمة تعاهدنا عليها !

ونظرت في عينيه باحداد

ـ ألا تعترف بأن هذا هو ، على الأقل ، غير معقول ؟

لم يكن يتوقع ، قبل لحظات فحسب ، ان يجد ذهنه خالياً من الجواب ، وفمه فارغاً من الكلام ، وأحس احساساً كاملاً بأنها قد أفحمته ، وانه أسلم لحجتها وآلمه شعوره هذا بالاعتراف ، فأخذته نخوة المكابرة ، على ادراك منه ، حين قال

ـ وكذلك صمتك يا ناهدة انه غير معقول !

ورأى أصابعها تدعك المنديل وهي تقول في توتر

ـ لماذا ؟ لماذا لم تكتب انك تريدني ؟ لماذا لم تقل ذلك لأختك على الأقل ؟ أما كان يحق لي أن أحكم بأنك نسيتني بعد أن صمت سنة ونصف السنة ؟

فتمتم في ضعف

ـ ولكني لم أقل اني لا أريدك !

وسارعت تقول

ـ إن هذا لا يكفي انه موقف سلبي جداً ، بازاء موقف الرجل الذي أقبل يطلب يدي .

قال وهو يحس ان المكابرة تعاوده

ـ كنت أعتقد ان العهد بيننا كان كافياً

فكان جوابها سريعاً هذه المرة كذلك

ـ ان العهد كلمة مجردة ولا بد من تقديم البراهين المحسوسة لمنحه قيمته

واستلت تقول

ـ أما أنا ، فقد ظلمت طوال ثلاثة أشهر أماطل في اعطاء الجواب ، فيما كنت أتردد على أختك ، وأنا أنتظر أن يبلغني منها كلمة تدل على موقفك

قال

ـ ولماذا لم تكتبي لي في ذلك

ـ لأني كنت واثقة من أن أختك قد كتبت لك أكثر من مرة !

ثم تابعت

ـ والحق انني أنا التي لم أكن أريد أن أحرجك أو أغتصب عهدنا اغتصاباً ألا تعتقد انه كان مذلاً لي أن أكتب اليك ، وأنت صامت هناك ؟

وأحس رأسه يثقل بين يديه، وسمع صوته يأتيه واهناً :

ـ هكذا اذن ؟ هكذا اذن ...

ثم رآها فجأة تقف وقد أمحى الأسى والتساؤل عن ملامحها وتقول

ـ هذا على كل حال حديث غير مجد لقد تزوج كلانا الآن !

فتمتم

— هذا صحيح انها الحياة

وشعر انه ينطق بتفاهة ، فأخذه الغضب من نفسه ، فقال وكأنما يرشقها بسهم

— ويبدو انك سعيدة .. ولقد ازددت جمالاً ونضارة..

قالت ببساطة

— لست شقية

وتوجهت اليه تسأله

— وأنت ؟

فنظر الى أوراقه ، ولم يجب قالت

— يبدو لي انك قد كبرت قليلاً

وقبل ان يعلّق بشيء ، اخترق سمعها صوت صرخة ثاقبة ، فالتفتا ، فإذا بالصبي منكبٌ على وجهه فوق بلاط الباحة يصرخ ، واخته فوقه تحاول ان ترفعه

وهبّ واقفاً ، وانطلق يسابقها ليحمل الطفل بين يديه. ونبّهته صرختها الى الدم الذي يسيل من أنف الطفل ، فاحتضنه وعاد به الى حيث كانا يجلسان

ونادى الخادم يطلب منه قطناً وجلس على كرسيه والطفل بين ذراعيه يبكي ، رأى ناهدة مقبلة عليه ، ممتقعة الوجه ، فأخذت منه طفلها ، وجلست به

الى الطاولة المجاورة ، حيث كانت جالسة قبل لحظات

وأخذ يمسح دم الطفل عن أنفه ، وقال

ـ لندعه يستريح بعض الدقائق

وقالت له بصوت واهن

ـ انني انا المذنبة لقد غفلت عنها

قال وقد أحسّ يده ترتعش

ـ بل أنا المذنب لقد شغلتك عن حاضرك

وخطرت له بقية العبارة «بماضيّ أنا» ولكنه لم ينطق بها وأضاف

ـ المعذرة يا ناهدة

وعاودته تلك النكهة من اسمها على لسانه ثم راح يلامس بأصابعه خدّ الطفل الذي كان قد كفّ عن البكاء. وفاجأ نفسه مرة اخرى وهو يقول

ـ لقد كان من الممكن ان يكون ابني

واقترب ، فأخذ الطفل الى صدره ، وقبّله في جبينه ووجنتيه

وحين نظر الى ناهدة ، رأى في عينيها دموعاً . ولكنه لم يعرف السبب ألشعورها السابق بالذنب بكت ، أم

لعبارته الأخيرة ، أم لأنه ضمّ اليه ابنها ؟

ذهبت من غير ان تلتفت اليك ، من غير ان تبتسم بسمةً أخيرة ومع ذلك ، فقد كان حضورها يملأ المكان كله ، المقهى كله ، حتى لم يكن ثمة حضور آخر وحتى حضورك أنت كان يعاني الغيبوبة

وها هوذا قلمك في يدك ، وأوراقك على الطاولة ، ونقطة الدم ، هذه التي حاولت أن تمسحها فلم تذهب ، ما تزال باقية على كمّ سترتك

نقطة الدم هذه ، هي كل ما تبقّى لك

أما هذه الصفحة ، فما يزال قلمك يستعصي على ان يسطر الخاتمة فيها

بلا نهاية ، ستبقى قصتك

بلا نهاية

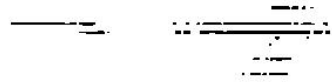

فهرس

القلق

الدمع العذب

رحماك يا دمشق

الشهداء

العصفور القطبي الأصفر

النفاهة

للمؤلف

	ق. ل
الحي اللاتيني (طبعة خامسة)	٤٠٠
الخندق الغميق	
الدمع المر (نفد)	
أصابعنا التي تحترق	

الثمن ٢٠٠ ق. ل.
٢٥٠ ق. س.
٤٠٠ مليم

مطابع دار العلم للملايين
بيروت